

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن مركز البحوث والدراسات - قطر

العدد: ١٣٤ ذو القعدة ١٤٣٠هـ السنة التاسعة والعشرون

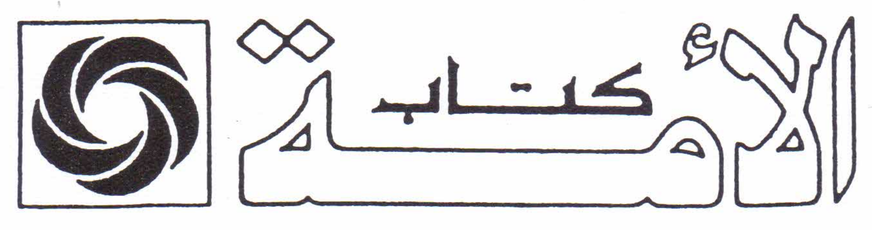
قيم السلوك مع الله
عند ابن قيم الجوزية

الجزء الثاني

أ.د. مفرح بن سليمان القوسي

مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي

* من مواليد المملكة العربية السعودية.
* عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الشريعة (الرياض)، قسم الثقافة الإسلامية.
* أسهم في إعداد مخططات رسائل الماجستير والدكتوراه في تخصص الثقافة الإسلامية.
* أشرف على إعداد الكثير من البحوث العلمية الجامعية.
* شارك في تحكيم بحوث علمية مختلفة.
* عضو في العديد من المجالس واللجان العلمية بالجامعة.
* شارك في الكثير من الندوات والمؤتمرات العلمية داخل السعودية وخارجها.
* له خمسة عشر كتاباً مطبوعاً، بالإضافة للعديد من البحوث العلمية المحكمة.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن مركز البحوث والدراسات - قطر
ص.ب: ٨٩٣ الدوحة. قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يتكامل مع الجزء الأول، حيث يحاول الباحث متابعة محاولته الجادة لإبراز دور القيم السلوكية في تصويب حياة الناس ومعالجة الخلل، بحيث يمكن اعتباره جهداً مقدوراً في العمل والعودة بالأمة إلى الينابيع الأولى، في الكتاب والسنة، لتستأنف الأمة بخيريتها إلحاق الرحمة بالعالمين.

فالسلوك يعتبر مرآة الإيمان، ذلك أن قيم الدين إنما شُرعت وتنزلت لتعبيد الناس لله وبناء الدنيا، وفق منهج الله، فمن كان سلوكه وعمله يخالف عقيدته فكأنما يوبخ نفسه.

ويبقى السؤال الكبير: كيف نستطيع ردم الفجوة بين قيم الإسلام وواقع المسلمين ونتحقق بالقناعة الكافية؟ إن الإسلام إنما انتشر وانتصر بسلوك النماذج المؤمنة، في شتى مجالات الحياة، التي تجسدت فيها القيم السلوكية المتأتية من الكتاب والسنة، الأمر الذي يؤكد أن الإسلام عقيدة وعمل قبل أن يكون فلسفة نظرية ورؤى خيالية، ومعارف باردة لا علاقة لها بالسلوك.

لقد تحدثنا كثيراً، ولا نزال، عن الفصام الرعيب بين العقيدة والسلوك، بين قيم الإسلام وواقع المسلمين؛ وتوقفنا عند حدود الشكوى؛ وكلما تمضي الأيام يبقى الحصاد هشيماً، فلا نعمل أكثر من إعادة إنتاج الشكوى بشكل لا يسمن ولا يغني من جوع، دون تقديم دراسات جادة تساهم بتغيير ما في نفوسنا ليتغير ما بنا، وإجابات مقنعة: لماذا صرنا إلى ما نحن فيه؟ وكيف يمكننا الخروج من هذا الواقع؟

من خلال هذه الحال، التي لا نُحسد عليها، ندرك أهمية وضرورة استدعاء البحوث والدراسات التي تتمحور حول كيفية بناء القيم السلوكية، وقد يأتي في مقدمة من أدرك هذا الرباط، الذي يشكل تغييبه مكمن الإصابة، الإمام ابن القيم، رحمه الله، الذي كان له القدح المعلى في ذلك؛ فلقد أفرد لهذه الإشكالية الكبيرة بحوثاً ومؤلفات تتوازى مع جهده المبذول في فقه الشريعة وأصول الأحكام.

موقعنا على الإنترنت: www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www. Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

قيم السلوك مع الله

عند ابن قيم الجوزية

الجزء الثاني

أ.د. مفرح بن سليمان القوسي

الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤٣٠هـ

تشرين أول (أكتوبر) – تشرين ثاني (نوفمبر) ٢٠٠٩م

مفرح بن سليمان القوسي

قيم السلوك مع الله.. عند ابن قيم الجوزية، الجزء الثاني.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٩م.

١٤٤ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٣٤)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٦٧٠ / ٢٠٠٩

الرقم الدولي (ردمك): ٥ – ٨٧ – ٤٤ – ٩٩٩٢

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

يقول تعالى:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(هود: ١١١)

مركز البحوث والدراسات



قطر - الدوحة - ص.ب :٨٩٣ - هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤) - فاكس : ٤٤٤٧٠٢٢

تقديم

الحمد لله، الذي جعل شرعة الإسلام، عقيدة وعملاً، فكراً وفعلاً، إيماناً وسلوكاً، حيث السلوك يعتبر مرآة الإيمان وبرهان صدقه.

والصلاة والسلام على نبي الرحمة، أنموذج الاقتداء والتأسي، الذي كان سلوكه، «**خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»، الذي اعتبر مغايرة السلوك لمقتضيات المعتقد من مؤشرات وعلامات النفاق.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الرابع والثلاثون بعد المائة: «**قيم السلوك مع الله عند ابن قيم الجوزية**»، الجزء الثاني، للأستاذ الدكتور مفرح ابن سليمان القوسي، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، مساهمة منها في العمل على معاودة إخراج الأمة المسلمة، وبناء خيريتها، وتربيتها على منهج الوسطية والاعتدال، من خلال الالتزام بقيم الكتاب والسنة، وإبراز دور قيم الوحي في تشكيل السلوك

وانتشال المسلم المعاصر من وهدة التخلف والتراجع الحضاري، وإعادة بناء سلوكه في ضوء معطيات معرفة الوحي، وتخليصه من معاناته وأزماته وتقديمه كأنموذج إنساني عالمي يثير الاقتداء ويحمل رسالة الرحمة للعالمين.

فالسلوك والاستقامة: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ**» (أخرجه مسلم) تعتبر مرآة العقيدة والإيمان -كما أسلفنا- ذلك أن قيم الدين إنما شُرعت وتنزلت لتعبيد الناس لله وبناء الدنيا، وفق منهج الله، وتحقيق إنسانية الإنسان وتوفير كرامته وتنظيم علاقاته بغيره، فمن كان سلوكه وعمله يخالف عقيدته فكأنما يوبخ نفسه.

ويبقى السؤال الكبير والمعادلة الصعبة: كيف نستطيع ردم الفجوة بين قيم الإسلام وواقع المسلمين ونتحقق بالقناعة الكافية؟ إن الإسلام إنما انتشر وانتصر بسلوك النماذج المؤمنة، في شتى مجالات الحياة، التي قدمت للعالم، ولا تزال، أنماطاً بشرية جديدة، تتجسد فيها القيم السلوكية المتأتية من الكتاب والسنة، الأمر الذي يؤكد أن الإسلام عقيدة وعمل قبل أن يكون أو لا يكون فلسفة نظرية ورؤى خيالية طوباوية، ومعارف باردة لا علاقة لها بالسلوك والفاعلية وبناء الإنسان.

لقد تحدثنا كثيراً، ولا نزال، في مـؤلفاتنا ومؤتمراتنـا ونـدواتنا ونوادينا عن الفصام الرعيب بين العقيدة والسلوك، بين قيم الإسـلام وواقع المسلمـين؛ وتوقفنا عند حـدود الشكوى؛ وكلما تمضي الأيام يبقى الحصاد هشيماً، فلا نعمل أكثر من إعادة إنتاج الشكوى لكـن بصور وأساليب قد تكون جديدة لكنها جميعاً لا تقدم إلاّ إجـابات عامة، لا تسمن ولا تغني من جوع، دون أن نسعى لتقديـم أية بحوث أو دراسات جادة تساهم بتغيير ما في نفوسنا ليتغير ما بنـا، ونقـدم إجـابات مقنعة: لماذا صـرنا إلى ما نحن فيه؟ وكيف يمكننا الخـروج من هذا الواقع؟ وما هي الوسائل المختبرة التي تشكل أدوات الخـروج من النفق المظـلم، الذي طـال أمده حتى نكاد نألفه وتتشكل ذهنيتنا في مناخه؟

من خلال هذه الحال، التي لا نُحسد عليها، ندرك أهمية وضرورة استدعاء البحوث والدراسات التي تتمحور حول كيفية بنـاء القـيم السلوكية، وتقدم منهج البناء، وتكشف عن علوم طريق الوصول إليها، وتبين مدارج السالكين وروافع الكمال والاكتمال.

وقد يأتي في مقدمة من أدرك هذا الرباط، الذي يـشكل تغييبـه مكمن الإصابة، الإمام ابن القيم، رحمه الله، الذي كان له القدح المعلى في ذلك؛ فلقد أفرد لهذه الإشكالية الكبيرة بحوثاً ومؤلفات تتوازى مع

جهده المبذول في فقه الشريعة وأصول الأحكام؛ ولعل في هذا الجزء الثاني، الذي يتكامل مع الكتاب الأول، محاولة جادة لإبراز دور القيم السلوكية في تصويب حياة الناس ومعالجة الخلل، بحيث يمكن اعتبار ذلك لوناً من التجديد في إطار السلوك، وجهداً مقدوراً في العمل والعودة بالأمة إلى الينابيع الأولى، في الكتاب والسنة، ونفي البدع والمحدثات، واستئصال نوابت السوء، لتستأنف الأمة بخيريتها إلحاق الرحمة بالعالمين.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الثاني

ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابن القيم

يرى ابن القيم أنه لا يتأتى للسالك السير في الطريق إلى الله تعالى، ولا يصح له ذلك إلا بالالتزام بشروط عديدة والانضباط بضوابط دقيقة، يتمثل أهمها في ما يلي:

أولاً: الإيمان بالله تعالى.

ثانياً: العبودية الخالصة لله تعالى.

ثالثاً: الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما.

رابعاً: متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به.

خامساً: تعلم العلم الشرعي.

سادساً: الالتزام بأداء التكاليف الشرعية.

سابعاً: اجتناب الذنوب والمعاصي.

وسأتناول -إن شاء الله- كل واحد من هذه الضوابط السبعة في مبحث مستقل، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: الإيمان بالله تعالى

أول ما يجب على العبد ليصح سيره إلى الله تعالى: أن يكون مؤمناً به سبحانه، فالإيمان أساس الأعمال الصالحة وقاعدة بنيانها، «ومن أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان و لم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد. فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة:١٠٩).

والأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء»[1].

ويبين -رحمه الله- حقيقة هذا الأساس المتمثل بالإيمان فيقول:

---

(١) الفوائد، ص١٩٤.

«وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء»[1].

ويؤكد أنه لا يتحقق الإيمان إلا بتضافر أربعة أمور هي: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح، فنراه يقول: «حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان:

- قول القلب، وهو الاعتقاد.
- وقول اللسان، وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان:

- عمل القلب، وهو نيته وإخلاصه.
- وعمل الجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة.

وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع

---

(١) المصدر السابق.

التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرّون به سراً وجهراً ويقولون: ليس بكاذب ولكن لانتَّبعه ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولاسيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت. ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد»[1].

ويقول أيضاً: «الإيمان له ظاهر وباطن. وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته. فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حُقن به الدماء وعُصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف وهلاك. فتخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوِّه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته.

(١) كتاب الصلاة، ط ٤ (القاهرة: المكتبة القيمة، ١٤٠٧هـ) ص٢٩-٣٠.

فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه. وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول»[1].

ومدار الإيمان -في نظره- على أصلين اثنين:

أحدهما: التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ.

والثاني: طاعة أوامرهما.

ويتبع هذين الأصلين أمران هما:

- رد شبهات الباطل التي توحيها شياطين الجن والأنس في معارضة الخبر.

- ومجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وكمال الطاعة[2].

---

(١) الفوائد، ص١١٧.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ص١٩٥-١٩٦.

المبحث الثاني: العبودية الخالصة لله تعالى

لابد للسالك أن يحقق العبودية التامة لله تعالى بأن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته وجميع أعماله لله لا شريك له، وأن يفرغ قلبه من عبادة غير الله ويملؤه بعبادة الله وحده، فإذا حقق ذلك قَرُبَ من الله وغمره سبحانه بالرحمة والسعادة وأفاض عليه العلم، يقول سبحانه عن موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥).

يقول ابن القيم عن إخلاص العبادة لله: «هو الغاية التي شمّر إليها السالكون، وأمّها القاصدون، ولحظ إليها العاملون...، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية». وقال بعض العارفين: «لا طريق أقرب إلى الله من العبودية»[1].

ويقول أيضاً: لابد للسالك من «تكميل عبودية الله عز وجل في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله. وكمال عبودية العبد: موافقته لربه في محبته ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه، وبذل الجهد في تركه. وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة لا للأمارة ولا للوامة، فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل.

---

(١) مدارج السالكين، ١/٣٢٦.

وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهـــود خاص فيها مطـــابق لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالف له، فإنه بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف، ويكون ذلـــك قائماً بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخـــصوصها، وهـــذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، وهذا الدرب طريق آمن أكثر السالكين في غفلة عنه، وهو أيضاً طريقٌ سهلٌ قريبٌ موصلٌ، ولكنه يستدعي رسوخاً في العلم ومعرفة تامة به وإقداماً على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله. وليس عند أكثر الناس سوى رسومٌ تلقّوها عن قوم معظّمين عندهم، ثم لإحسان ظنهم بهـــم قـــد وقفوا عند أقوالهم و لم يتجاوزوها فصارت حجاباً لهم، وأي حجاب.

فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل فقد أُوتي خيراً كثيراً، ولا يُخاف عليه إلا من ضعف همته. فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقاً، واحد الناس في زمانه، لا يلحق شأوه غباره، فشتّان ما بين من يتلقّى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات وبين من يتلقّاها عن الأوضـــاع الاصطـــلاحية والرسوم أو عن مجرد ذوقه ووجده، إذا استحسن شيئاً قال: هذا هو الحق.

فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجبٌ، وفتحه عجب، صاحب قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرَّد عن ســـكنه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ (النمل:٨٨)» [١].

(١) طريق الهجرتين، ص٣٩٣-٣٩٤.

ويعقد في كتابه «مدارج السالكين» فصلاً في «لزوم إياك نعبد لكل عبد إلى الموت»، يقول فيه: «قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩)؛ واليقين هـاهنا: الموت بإجماع أهل التفسير...، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لمّا يسأله المَلَكَان: من كان يعبد؟، وما يقـول في رسـول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصـارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً»[1].

ويبين ابن القيم قيمة «العبودية الخالصة لله»، وقدرها، فيقول: «جميـع الرسل إنما دعوا إلى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فـإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم، فقـال نوح لقومـه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعـراف:٥٩)؛ وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. قال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل:٣٦)؛ وقـال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥)؛ وقـال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟

(١) مدارج السالكين، ١/٨٧.

﴿...مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥١-٥٢).

والله تعالى جعل «العبودية» وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه، فقال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ (النساء:١٧٢)؛ وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾ (الأعراف:٢٠٦)...؛ وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ (ص:١٧)؛ وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ (ص:٤١)؛ وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ (ص:٤٥)؛ وقال عن سليمان: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص:٣٠)، وقال عن المسيح: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ (الزخرف:٥٩)، فجعل غايته العبودية لا الإلهية كما يقول أعداؤه النصارى، ووصف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ (البقرة:٢٣)؛ وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ (الفرقان:١)؛ وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ (الكهف:١)؛ فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ (الجن:١٩)،

فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ (الإسراء:١)؛ فذكره بالعبودية في مقام الإسراء...

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر:١٧-١٨)؛ وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ (الزخرف:٦٨-٦٩)؛ وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٤٢)؛ وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل:٩٩-١٠٠).

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل -وقد سأله عن الإحسان-: « **أَنْ تَعْبُدَ اللّٰهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** [1]»[2].

والعبودية المطلوبة هنا: عبودية الطاعة والمحبة، لا عبودية القهر والملك والغلبة. ذلك أن العبودية في نظر ابن القيم نوعان: عبودية عامة، وعبودية خاصة.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) مدارج السالكين، ١/٨٥-٨٧.

«فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (مريم:٨٨-٩٣)، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

والعبودية الخاصة: عبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الزخرف:٦٨)؛ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ﴾ (الزمر:١٧-١٨)؛ وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:٦٣)...

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء. وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

الأول: إما مُنكّراً، كقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (مريم:٩٣).

والثاني: معرَّفاً باللام، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ (غافر:٤٨).

الثالث: مقيداً بالإشارة ونحوها، كقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ (الفرقان:١٧).

الرابع: أن يُذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ (الزمر:٤٦).

الخامس: أن يُذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ (الزمر:٥٣).

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال: طريق مُعَبَّد، إذا كان مُذَلَلاً بوطء الأقدام.

وفلان عَبَّده الحب، إذا ذلله. لكن أولياء الله خضعوا له وذَلّوا طوعاً واختياراً وانقياداً لأمره ونهيه. وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً»[١].

وللعبودية -عند ابن القيم- مراتب بحسب العلم والعمل.

«أما مراتبها بحسب العلم فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله.

والثانية: العلم بدينه.

---

(١) المصدر السابق، ٨٨/١-٨٩.

والعلم بالله سبحانه خمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم: العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتب العبودية بحسب العمل فمرتبتان:

- مرتبة لأصحاب اليمين.
- ومرتبة للسابقين المقربين.

أما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع فعل المباحات وبعض المكروهات، وترك المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات.

ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله»[1].

---

(١) المصدر السابق، ١/٩٠، بتصرف يسير.

المبحث الثالث: الالتــزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما

لا بد للسالك من الالتــزام بما جاء في الكتاب والسنة ليصح سيره إلى الله تعالى، وقد أكد ابن القيم ذلك في العديد من كتبه، وعني به أشد عناية، ومن ذلك أنه:

أ- أورد بعض النصوص الشرعية الدالة على وجوب اتبــاع الكتــاب والسنة، وبيَّن وجه دلالة كل منها على هذا الوجوب، فنراه يقول:

«قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦)؛ فدل هذا على أنــه إذا ثبت لله ولرسوله في كل مســألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنــه ليس لأحد أن يتخيَّر لنفسه غير ذلك فيــذهب إليه، وأن ذلك ليس لمــؤمن ولا مؤمنة أصلاً فدل على أن ذلك مناف للإيمان...

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور:٥٤)؛ فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرســول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه،... فالآية نص على انتفاء الهدايــة عند عدم طاعته...

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء:٥٩)، فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بندائهم باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا وخوطبوا به...، ففي ذلك إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه. وتحت قوله سبحانه ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ سرٌّ لطيف، وهو: دلالته على أن ما يأمر به رسوله تجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن، فتجب طاعة الرسول مفردة ومقرونة. فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن لا تجب طاعته فيه، كما قال النبي ﷺ: **«يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»**[1]...

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب (السنة)، باب (في لزوم السنة)، الحديث رقم (٤٦٠٤)، ٤/٢٠٠؛ وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد، تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكري، ط٢ (المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ١/١٤٩-١٥٠؛ كما أخرجه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (١٧١٧٤)، ٢٨/٤١٠، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح ورجاله ثقات».

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (النساء:٥٩)، وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يَرُدَّ كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وهذا مما ذكرناه آنفاً شرطٌ ينتفي المشروط بانتفائه، فدلَّ على أن من حكَّم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر،... وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو: الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولي الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إليَّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة. فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله، وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً»[1].

---

(١) الرسالة التبوكية، تحقيق: سليم الهلالي، ط ١ (جدة: مكتبة الخراز؛ بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) الصفحات: ١٠٧-١٠٩، ١١١-١١٣، ١٣٣-١٣٥.

ب- وأورد أقوال بعض علماء الزهد والسلوك في الالتزام بالكتاب والسنة، فنراه يقول: «قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد، رحمه الله: «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة». وقال: «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة».

وقال أبو حفص، رحمه الله: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال».

وقال أبو سليمان الداراني، رحمه الله: «ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة»...

وقال أبو يزيد[1]: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»[2].

ولذا يقول ابن القيم: «وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة، ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والإلهامات حتى يقوم عليها شاهدان: الكتاب والسنة»[3].

---

(١) طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، أحد الزهاد العبّاد، له كلام حسن في المعاملات، توفي سنة ٢٦١هـ، وقيل غيرها. انظر: طبقات الصوفية، ص٦٧؛ وسير أعلام النبلاء، ١٣/٨٦-٨٩.

(٢) مدارج السالكين، ٢/٣٤٨؛ وانظر: ٢/٧٦، و٣/١٠٨-١٠٩؛ وإغاثة اللهفان، ص١٣٣.

(٣) إغاثة اللهفان، ص١٣٢.

ج- وبيَّن أن رأس الأدب مع الرسول ﷺ: «كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يُحَمِّله السالك معارضة خيال باطل يسميه معقولاً، أو يُحمِّله شبهة أو شكاً، أو يُقدِّم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيُوحِّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحَّد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل»[1].

وفصَّل في كيفية الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام والإذعان له، حيث ذكر أن ذلك يكون بثلاثة أمور هي:

«الأول: ألا يعارض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالتعويل على المعقول هو منهج المتكلمين الذين يعارضون نصوص الشرع بمعقولاتهم الفاسدة، ويقولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل وعزلنا النقل.

والأخذ بالقياس هو منهج المنحرفين المنتسبين إلى الفقه الذين يقولون: إذا تعارض القياس والنص قدمنا القياس على النص.

والاعتماد على الذوق هو منهج المنحرفين من الصوفية الذين إذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق و لم يعبأوا بالأمر.

---

(١) مدارج السالكين، ٢/٢٩١؛ وانظر: ص٢٩٣.

والاعتداد بالسياسة هو منهج المنحرفين الجائرين من ولاة الأمر الـــذين إذا تعـــارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا الـــسياسة و لم يلتفتـــوا إلى حكم الشريعة.

الثاني: ألا يتهـــم دليـــلاً من أدلة الشـــرع، بحيث يظنه فاسد الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه والبلية فيه. وهذا هو واقع الأمر، فإنه ما اتهم أحد دليلاً للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقلـــه وذهنـــه، فالآفة في الذهن العليل، لا في نفس الدليل. وإذا رأى السالك من أدلة الدين ما يُشْكِل عليه أمره وينبو عنه فهمه، فليعلم أن تحته كنـــزاً من كنوز العلم، وأنه لم يؤت مفتاحه بعد لكلال ذهنه.

الثالث: ألا يجد إلى خـــلاف النص سبيلاً ألبتة، لا بباطنه ولا بلـــسانه ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحس بشيء من الخلاف فهو كخلاف المُقْـــدِم على كبيرة كالزنا وشرب الخمر وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك، وهو الذي خافه الأئمة على أنفسهم»[1].

د- وعزا إلى الإمام الشافعي، رحمه الله، إجماع السلف على وجـــوب الالتـــزام بنصوص الكتاب والسنة، حيث يقول: «حكى الشافعي رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت لـــه سـنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد. ولا يستريب أحدٌ من أئمـــة

(١) المصدر السابق، ٢/٢٥٤-٢٥٥ بتصرف يسير.

الإسلام في صحة ما قال الشافعي رضي الله تعالى عنه. فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع، فضلاً عن أن تعارض بها النصوص وتُقدم عليها، عياذاً بالله من الخذلان»[1].

هـ- وأكد أن اتباع ما جاء في الكتاب والسنة هو الحق وصراط الله المستقيم المذكور في سورة الفاتحة، حيث يقول في معرض حديثه عن اشتمال سورة الفاتحة الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل: «الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق وإيثاره وتقديمه على غيره ومحبته والانقياد له والدعوة إليه وجهاد أعدائه بحسب الإمكان. والحق هو: ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علماً وعملاً في باب صفات الرب سبحانه وأسمائه وتوحيده وأمره ونهيه ووعده ووعيده وفي حقائق الإيمان التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى، وكل ذلك مسلّم إلى رسول الله ﷺ دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم. فكل علم أو عمل أو حقيقة أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته وعليه السكة المحمدية فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال»[2].

و- وبيّن حكم من استغنى عن الكتاب والسنة، فقال: «ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يُلقى في قلبه من الخواطر والهواجس، فهو من

---

(١) الرسالة التبوكية، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) مدارج السالكين، ١/٥٥-٥٦.

أعظم الناس كفراً، وكذلك من ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة، فما يُلقى في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه إن لم يُعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان»[1].

ز- وشدد في النكير على من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الآراء والأذواق والأهواء. ومما قاله بهذا الشأن قوله عن هذه الطائفة: «واعجباً لها كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ونصوص حديث نبيه المرفوع، أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة والكتاب؟ واعجباً كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها، ومقبولها ومردودها، وراجحها ومرجوحها، وأقرّت على أنفسها بالعجز عن تلقي الهدى والعلم مِن كلام مَن كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان، وكلام من أُوتي جوامع الكلم، واستولى كلامه على الأقصى من البيان؟...

أفيظن المُعْرِض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟، أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟، أو بالإشارات والشطحات وأنواع الخيال؟... ولن ينال الإنسان المطالب العالية ويخلص من الخسران المبين إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه،

(١) إغاثة اللهفان، ص١٣٢.

والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته»[1].

ح- وحذّر السالك من التحاكم إلى الأذواق والمواجيد، فقال: «الذوق والحال والوجد منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة، حيث جعلوه حاكماً، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيح وفاسد، وجعلوه محكاً للحق والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص، وحكّموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد، فعظم الأمر وتفاقم الفساد والشر، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم، وانعكس السير، كان إلى الله فصيروه إلى النفوس، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم...

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فإن الأذواق مختلفة في أنفسها، كثيرة الألوان متباينة أعظم التباين، فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد بحسب معتقداتهم وسلوكهم...

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد والكشوف والأحوال من هذه الأمة المحدَّث المكاشَف عمر، رضي الله عنه، لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته في شيء من أمور الدين حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلى ذوقه، ولا إلى وجده

---

(١) مدارج السالكين، ١/١٦-١٨ بتصرف يسير.

وخطابه، بل يقول: «لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره»، ويقول: «أيها الناس: رجل أخطأ وامرأة أصابت»، فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة، رضي الله عنه، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة.

وإذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال أو حال من الأحوال أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين، وهي: وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه، وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود. ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين، وإنما معه خدع وغرور: ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (النور:٣٩).

وإذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء، هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي»[1].

---

(١) المصدر السابق، ١/٣٧٤-٣٧٥.

المبحث الرابع: متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به

لابد للسالك كذلك من متابعة الرسول ﷺ والتأسي به في كل أعماله صغيرها وكبيرها، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)؛ وفي هذا يقول ابن القيم مخاطباً العبد السالك: حقيقة هذا الاقتداء «التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، وتحكيمه باطناً وظاهراً، والوقوف معه حيث وقف بك، والمسير معه حيث سار بك، بحيث تجعله بمنزلة شيخك الذي قد ألقيت إليه أمرك كله سره وظاهره، واقتديت به في جميع أحوالك، ووقفت مع ما يأمرك به فلا تخالفه ألبتة، فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخاً وإماماً وقدوة وحاكماً، وتعلق قلبك بقلبه الكريم وروحانيتك بروحانيته كما يُعلّق المُريد روحانيته بروحانية شيخه، فتجيبه إذا دعاك، وتقف معه إذا استوقفك، وتسير إذا سار بك، وتقيل إذا قال، وتنزل إذا نزل، وتغضب لغضبه، وترضى لرضاه. وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بإذنك.

وبالجملة: تجعل الرسول شيخك وأستاذك ومعلمك ومربيك ومؤدبك، وتُسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ، كما تُسقط الوسائل بينك وبين المرسِل في العبودية، ولا تُثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك»[1].

---

(١) مدارج السالكين، ٣/١٠٩.

ويتابع فيقول: «وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة ألا إلــه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه الــذي لا يــستحق العبادة سواه، ورسوله المطاع المتَّبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواه. ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته، فيطاع تبعاً للأصل.

وبالجملة: فالطريق مسدودة إلا على من اقتفــى آثــار الرســول ﷺ واقتدى به ظاهره وباطنه. فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق، فلــيس حظه من سلوكه إلا التعب، وأعماله: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (النور:٣٩).

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق، فإنه واصل ولو زحــف زحفــاً، فأتباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم: قامت بهم عــزائمهم وهممهــم ومبايعتهم لنبيهم، كما قيل:

من لي بمثل سيرك المدلَّل   تمشي رويداً وتجيء في الأول

والمنحرفون عن طريقه إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم: قعــد بهــم عدولهم عن طريقه:

فهم في السُّرى لم يبرحوا من مكانهم   وما ظعنوا في السير عنه وقد كلّوا»[1]

---

(١) المصدر السابق، ٣/١٠٩-١١٠؛ وراجع: طريق الهجرتين، ص٢٤.

ويقول -معتبراً- الاقتداء بالرسول ﷺ أحد ثلاثة أمور لا يصح السلوك إلا بها: «إنما يصح السلوك ويسلم من الآفات والعوائق والقواطع بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون السالك على الدرب الأعظم، الدرب النبوي المحمدي، لا على الجوادّ الوضعية والرسوم الاصطلاحية، وإن زخرفوا لها القول ودققوا لها الإشارة وحسنوا لها العبادة.

الثاني: أن لا يجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة.

الثالث: أن يكون في سلوكه ناظراً إلى المقصود»[1].

ويستشهد بأقوال بعض علماء السلوك الأجلاء في هذا الضابط، فيقول: «قال الجنيد بن محمد، رحمه الله: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»[2]، «وقال أحمد بن أبي الحواري[3]، رحمه الله: «من عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله»[4]، «وقال ابن عطاء[5]: «من ألزم نفسه

---

(١) مدارج السالكين، ٣/١٣٠-١٣١.

(٢) المصدر السابق، ٣/٩٣؛ وانظر: ٢/٧٦، و ص٣٤٨؛ وطريق الهجرتين، ص٢٤.

(٣) أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري، الزاهد الورع، صحب أبا سليمان الداراني وسفيان ابن عيينة، توفي سنة ٢٣٠هـ. انظر: صفة الصفوة، ٤/٢٣٧-٢٣٨.

(٤) مدارج السالكين، ٢/٣٤٨.

(٥) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء البغدادي، الزاهد العابد، من مشائخ الصوفية وعلمائهم، توفي سنة ٣٠٩هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٢٦٥، وشذرات الذهب، ٢/٢٥٧.

آداب السنة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقـــام متابعـــة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه»[1].

ويبين، رحمه الله، الفرق بين تجريد المتابعة للرسول ﷺ وإهدار أقـــوال العلماء وإلغائها، فيقول: «والفرق بين تجريد متابعة المعـــصوم ﷺ وإهـــدار أقوال العلماء وإلغائها: أن تجريد المتابعة أن لا تُقدِّم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائناً من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولاً، فإذا صـــح لـــك نظرت في معناه ثانياً، فإذا تبيَّن لك لم تعدل عنه ولو خالفك مَن بين المشرق والمغرب. ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها، بل لابـــد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلك بالقائل حجة على الله ورسوله، بل اذهب إلى النص ولا تضعف، واعلم أنه قد قال بـــه قائـــل قطعاً ولكن لم يصل إليك، هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه، فهم دائـــرون بـــين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يُوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك، فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فَهلاَّ وافقته إن كنتَ صادقاً، فَمنْ عَرَضَ أقوال العلمـــاء على النصوص ووزنهـــا بها وخالف منها ما خالف النص لم يُهدر أقـــوالهم ولم يهضم جانبهم، بل اقتدى بهم، فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتَّبعهم حقـــاً من امتثل ما أوصوا به لا مَنْ خالفهم. فمخالفتهم في القول الذي جاء النص

---

(١) مدارج السالكين، ٢/٣٤٩.

بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يُقلده به، ولذلك سُمي تقليداً. بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم على القِبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى. قال الشافعي: «أجمع الناس على أن مَنْ استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»[1].

---

(١) الروح، ص٣٥٦-٣٥٧.

المبحث الخامس: تعلُّم العلم الشرعي[1]

تعلُّم العلم الشرعي، والتفقه في أمور الدين الإسلامي، والبحث عن الدليل في مصادر التشريع الإسلامي المتفق عليها أمرٌ ضروري للسالك في نظر ابن القيم، فهو يقوده إلى الله عز وجل على كل حال.

يقول رحمه الله: «العلم إن لم يصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها. وهذا إجماع من الشيوخ العارفين، و لم ينه عن العلم إلا قُطّاع الطريق منهم ونُوَّاب إبليس وشُرطه»[2].

ويقول أيضاً: «إن كل حال وذوق ووَجْدٍ وشهود لا يُشرق عليه نور العلم المؤيَّد بالدليل فهو من عبث النفس وحظوظها، فلو قُدِّر أن المتكلم

---

(١) المراد بالعلم الشرعي هنا: علم الكتاب والسنة في العقيدة والعبادة والتشريع.
وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يرى أن العلم الشرعي في الإسلام يشمل نوعين من العلوم، أحدهما: العلوم النقلية؛ أي المستندة إلى النقل وهو الوحي. والثاني: العلوم العقلية والتجريبية الصحيحة.
فكون العلم شرعيا يشمل:
١- ما أمر به الشرع وجاء به.
٢- وما أذن فيه وأباحه.
أما المقابل للعلم الشرعي – في نظره – فهو البدعي الخارج عن حدود الشرع، سواء أدخل نفسه ضمن العلوم النقلية كعلم الكلام الفلسفي؛ أم ضمن العلوم العقلية كعلم السحر. انظر: مجموع الفتاوى، ٢١/٩ وما بعدها، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد (مكة المكرمة: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين).
(٢) مدارج السالكين، ٣٤٧/٢.

إنما تكلم بلسان العلم المجرد، فلا ريب أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حال من يخالف العلم والعلم يخالفه.

وليس من الانصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم؛ فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير. وكم قد ضلَّ وأضلَّ مُحَكِّم الحال على العلم، بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال إليه، فما زكّاهُ شاهدُ العلم فهو المقبول، وما جرَّحه شاهد العلم فهو المردود. وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق، رضي الله عنهم، كُلّهم يُوصون بذلك، ويُخبرون أنَّ كُلَّ ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل»[1].

«وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم[2] من التزهيد في العلم والاستغناء عنه، كقول من قال: «نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت»، وقول الآخر -وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق[3]؟-: «ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع

(١) طريق الهجرتين، ص٥٨٥.

(٢) يعني: عن بعض أهل السلوك والتصوف.

(٣) مقصود ابن القيم بعبد الرزاق هنا: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، أحد كبار حفاظ الحديث الثقات، ولد سنة ١٢٦هـ، له كتاب (الجامع الكبير)، وكتاب (المصنف في الحديث)، وكتاب (تفسير القرآن). توفي سنة ٢١١هـ. انظر كلاً من: ابن حجر، تقريب التهذيب، ص٣٥٤؛ وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/٢١٦-٢١٧؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ٩/٥٦٣ وما بعدها.

من الخلاّق؟»، وقول الآخر: «العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل»، وقول الآخر: «إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ«أخبرنا» و«حدثنا» فاغسل يدك منه»، وقول الآخر: «لنا علم الحرف، ولكم علم الورق»، ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أقوال قائلها: أن يكون جاهلاً يُعذر بجهله، أو شاطحاً معترفاً بشطحه، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا «أخبرنا» و«حدثنا» لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومَنْ أحالَك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك إما على خيال صوفي أو قياس فلسفي أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدثنا» إلا شبهات المتكلمين وآراء المنحرفين وخيالات المتصوفين وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طريق الجحيم والشيطان الرجيم.

والعلم: ما قام عليه الدليل، والنافع منه: ما جاء به الرسول. والعلم خير من الحال، والعلم حاكم والحال محكوم عليه، والعلم هاد والحال تابع...، والحال سيف إن لم يصحبه العلم فهو مِخْراق في يد لاعب، والحال مَرْكَبٌ لا يجارى، فإن لم يصحبه علم ألقى صاحبه في المهالك والمتالف، والحال كالمال يؤتاه البر والفاجر، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالاً على صاحبه.

والحال بلا علم كالسلطان الذي لا يزعه عن سطوته وازع، والحال بلا عمل كالنار التي لا سائس لها، نفع الحال لا يتعدى صاحبه، ونفع العلم كالغيث يقع على الظِراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر...

والعلم تركة الأنبياء وتراثهم، وأهل عصبتهم وورائهم، وهو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول ولذة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يُعرف الله ويُعبد، ويُذكر ويُوحد، ويُحمد ويُمجَّد، وبه اهتدى السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تُعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه تُوصل الأرحام وتعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمُحدِّث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة...، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد، رضي الله عنه: «الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه»[1]. وروينا عن الشافعي، رضي الله تعالى عنه، أنه قال: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»، ونص على ذلك أبو حنيفة، رضي الله عنه.

---

(١) راجع: مفتاح دار السعادة، ص٦٣، وص٨٤.

وقال ابن وهب[1]:«كنت بين يدي مالك، رضي الله عنه، فوضعت ألواحي وقمت أُصلي، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضل مما قمتَ عنه» ذكره ابن عبد البر وغيره...

والعلم حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ويكفي في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتُظلهم بها، وأن العالِم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، وحتى النمل في جحرها، وأن الله وملائكته يُصلّون على معلمي الناس الخير[2]»[3].

ويستشهد بأقوال بعض علماء السلف في ضرورة العلم الشرعي، فيقول: «قال معاذ بن جبل: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سُبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمُحدِّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاّء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، وأئمة تُقتَصُّ آثارُهم، ويُقتدى بأفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم. ترغب الملائكة في خُلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل

---

(١) عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، أبو محمد، العالم الفقيه، صحب الإمام مالك ودرس عليه، توفي سنة ١٩٧هـ. انظر: تهذيب التهذيب، ٦/٧١.

(٢) يشير ابن القيم هنا إلى مضامين بعض الأحاديث النبوية الواردة في بيان فضل العلم وأهله.

(٣) مدارج السالكين، ٢/٣٥٠-٣٥٢. وراجع: ٢/٢٦٣-٢٦٤.

رطب ويابس، وحيتان البحر وهَوَامُّه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلَم. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابع له، يُلْهَمه السعداء، ويُحرمه الأشقياء»، رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما»[1]، «وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب «الزهد» من كلام لقمان أنه قال لابنه: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل القطر»[2].

ويقول: «كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «من فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول». وقال الحسن: «العالم على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسده أكثر مما يصلحه»[3].

ويقول أيضاً: «قال أبو عمرو بن نجيد[4]: «كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه»[5].

---

(١) المصدر السابق، ٣/١٩٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص٨٥.
(٤) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن أحمد السلمي النيسابوري، الإمام القدوة والمحدث الرباني، كبير الطائفة الصوفية، سمع من عبد الله بن أحمد بن حنبل ومحمد البجلي، وحدث عنه سبطه أبو عبد الرحمن السلمي وأبو عبد الله الحاكم وغيرهما، توفي سنة ٣٦٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ١٦/١٤٦-١٤٨.
(٥) مدارج السالكين، ٢/٣٥٠.

ويعقد ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» فصلاً مطولاً في فضل العلم وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه[1]، ومما قاله فيه قوله: «إن العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة، والنور والخير كله سببه النور والحياة، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويُبيّن مراتبها»[2]، «وحاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم، وإذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث»[3]، «وفَقْدُ العلم فيه فَقْدٌ لحياة القلب والروح، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين»[4]، «والعلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة»[5]، «وما قامت السموات والأرض وما بينهما إلا بالعلم، ولا بُعثت الرسل وأُنزلت الكتب إلا بالعلم، ولا عُبِدَ الله وحده وحُمِدَ وأُثني عليه ومُجِّد إلا بالعلم، ولا عُرِفَ الحلال من الحرام إلا بالعلم، ولا عُرِفَ فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم»[6].

وقوله أيضاً: «العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرّة

---

(١) راجع: مفتاح دار السعادة في الصفحات: ٥٠-١٦٨.
(٢) المصدر السابق، ص٥٦. وراجع: مدارج السالكين، ١٢٣/٣.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص٦٣، وراجع: ص٨٤.
(٤) المصدر السابق، ص٨٨.
(٥) المصدر السابق، ص٨٣.
(٦) المصدر السابق، ص٩٠.

عليه، كما قال بعض السلف: «من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح». والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود. فالعلم هو الميزان وهو المَحكّ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك:٢)؛ قال الفضيل بن عياض: (هو أخلص العلم وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟، قال: «إن العمل إذا كان خالصاً و لم يك صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً و لم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»)، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف:١١٠)؛ فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، مراداً به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم بما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده. فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٢٧)؛ وأحسن ما قيل في تفسير الآية: «أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على

موافقة أمره. وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كانت هذه منـــزلة العلم وموقعه عُلِمَ أنه أشرفُ شيء وأجلّه وأفضله»[1].

وقوله كذلك: «ولا ريب أن العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجـــلّ العلوم وأفضلها وأشرفها، فهو أصلها كلها،... وهو أيضاً أصل علم العبـــد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته. والجهل به مستلزم للجهل بنفـــسه ومصالحها وكمالها وما تـــزكو وتُفلح به، فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته»[2].

ومن فوائد العـــلم الشرعي للســـالك في نظر ابن القيم -بالإضافة إلى ما تقدم-:

١- أنه يهذبه ويهيئه لسلوك طريق العبودية لله عز وجل[3].

٢- ويهديه إلى الغاية المقصودة له من سيره، فكم من سالك لا يعرف الغاية من سيره[4].

٣- ويصحح همته، فأعلى الهمم همة اتصلت بالحق سبحانه، وهي همة الرسل وأتباعهم[5].

---

(١) المصدر السابق، ص٨٥.
(٢) المصدر السابق، ص٨٩.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ٣/١٠٨-١٠٩.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٣/١١٠-١١١.
(٥) انظر: المصدر السابق، ٣/١١١.

المبحث السادس: الالتزام بأداء التكاليف الشرعية

يجب على العبد السالك أداء ما افترضه الله عليه من عبادات شرعية، كالصلاة والصيام والزكاة والحج...، ويرى ابن القيم أنه لا يجوز للسالك ترك فرائض أو جهاد أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر مهما بلغ من درجة القرب من الله، بل يرى أنه ينبغي عليه أن يكون أكثر عبادة والتزاماً بأوامر الله ونواهيه كلما تَرقّى في درجات القرب من الله، حيث يقول، رحمه الله: «كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ -بل على جميع الرسل- أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته»[١].

ويقول أيضاً: «إن العبد كلما كان إلى الله أقرب كان جهاده في الله أعظم، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ (الحج:٧٨). وتأمَّلْ أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه فإنهم كانوا كلما ترقّوا من القرب في مقام؛ عظم جهادهم واجتهادهم، لا كما ظنه بعض الملاحدة المنتسبين إلى الطريق، حيث قال: «القرب الحقيقي ينقل العبد من الأحوال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة، ويريح الجسد والجوارح من كد العمل».

---

(١) مدارج السالكين، ١/٨٧-٨٨.

وهؤلاء أعظم كفراً وإلحاداً، حيث عطّلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة، التي هي من أماني النفس وخدع الشيطان...

وقد صَرَّح أهل الاستقامة وأئمة الطريق بكفر هؤلاء، فأخرجوهم من الإسلام، وقالوا: لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة، أي: ما دام قادراً عليه...

قال سري السقطي[1]: «من ادعى باطن حقيقة ينقضها ظاهر حكم فهو غالط». وقال سيد الطائفة الجنيد بن محمد: «علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ». وقال إبراهيم بن محمد النصرابادي[2]: «أصل هذا المذهب ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع، والتمسك بالأئمة والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون، والمقام على ما سلك الأولون». وسُئل إسماعيل بن نجيد: ما الذي لابد للعبد منه؟، فقال: «ملازمة العبودية على السنة ودوام المراقبة»... وقال الجنيد -لما ذُكر عنده استهانة بعض أهل المعرفة بالعبادات: «العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس

---

(١) سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادي المولد والوفاة، وهو خال الجنيد بن محمد وأستاذه، توفي سنة ٢٥٣هـ، وقيل ٢٥١هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٤٨؛ وصفة الصفوة، ٢/٣٧١-٣٨٥.

(٢) إبراهيم بن محمد النصرابادي، أبو القاسم، شيخ خراسان في زمنه، له اهتمام بالسير والتاريخ، توفي سنة ٣٦٧هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٤٨٤؛ وشذرات الذهب، ٣/٥٨.

الملوك»... فلا تصغ إلى قول ملحد قاطع للطريق في قالب عارف يقول: إن منـــزلة القرب تنقل العبد من الأعمال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة، وتَحْمِلُ على الاستهانة بالطاعات الظاهرة، وتُريحه من كَدِّ القيام بها»[1].

ويُعنِّف، رحمه الله، على من ادعى سقوط التكـــاليف الـــشرعية عـــن الســـالك إذا ازداد قرباً من الله، فيقـــول: «من زعم أنه يـــصل إلى مقـــام يسقـــط عنه فيه التعبـــد فهو زنديق كافر بالله ورسوله، وإنمـــا وصـــل إلى مقام الكفر بالله والانســـلاخ من دينه»[2]، والتكاليف الشرعية «إنما هـــي قـــرة عـــين، وسرور قلب، وحياة روح، صَدَرَ التكليفُ بها عـــن حكـــيم حميد. فهي أشرف ما وصل إلى العبد من ربه، وثوابه عليها أشرف ما أعطاه الله للعبد»[3].

(١) مدارج السالكين، ٣/٩١-٩٤، بتصرف يسير.
(٢) المصدر السابق، ١/٨٧.
(٣) المصدر السابق، ٣/١١٧.

المبحث السابع: اجتناب الذنوب والمعاصي

ولابد للسالك كذلك من اجتناب مقارفة الذنوب والمعاصي ليصح له سيره، وذلك لأن حياة القلب إنما هي في هذا الاجتناب، ولما للذنوب والمعاصي من أضرار كثيرة جداً في القلب كأضرار السموم في البدن.

يقول ابن القيم: «حياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك[1]، رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يُورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانها»[2]

ويقول: «مما ينبغي أن يُعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولابد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة -دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور- إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدَّل بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفراً، وبموالاة الولي الحميم أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس

---

(١) عبد الله بن المبارك المروزي، مولى بني حنظلة، العالم الجواد المجاهد الذي جمعت فيه خصال البر والخير، توفي سنة ١٨١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ٣٣٦/٨؛ وتقريب التهذيب، ص٣٢٠.

(٢) مدارج السالكين، ١٩٧/٣.

الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة...

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما دمرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

ومن الذي رفع قوم لوط حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم؟...

وما الذي أرسل على وقوم شعيب سحاب العذاب كالضل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظّى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نُقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبَّروا ما علوا تتبيراً؟»[1].

---

(١) الجواب الكافي، ص٤٢ – ٤٣.

ويبين، رحمه الله، قبح أثر الذنوب والمعاصي والضرر الناشئ منها، فيقول: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها:

١- حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

٢- حرمان الرزق، وفي المسند «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[١].

٣- وحشة يجدها العاصي في قلبه وبينه وبين الله لا توازها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

٤- وحشة تحصل بينه وبين الناس، ولاسيما أهل الخير منهم. وكلما قويت تلك الوحشة بَعُد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقَرُبَ من حزب الشيطان بقدر ما بَعُد من حزب الرحمن.

٥- ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادْلَهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة.

٦- أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث ثوبان، رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٢٣٨٦)، ٣٧/٦٨، وضعف محققو المسند إسناده؛ وأخرجه ابن ماجه في سننه، الحديث رقم (٩٠) ورقم (٤٠٢٢)، وقد ضعفه الألباني في تحقيقه لهذه السنن؛ كما أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب (الدعاء والتكبير)، الحديث رقم (١٨١٤)، ١/٦٧٠، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

٧- أن المعاصي سبب لهوان العبد على ربه. قال الحسن البصري: «هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم»، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج:١٨).

٨- أن المعاصي تورث الذل ولابد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر:١٠).

٩- أنها تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفئ نور العقل ولابد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

١٠- أنها تُضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتُضعف وقاره في قلب العبد ولابد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرّأ على معاصيه.

١١- أنها تُذهب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير. وذهابه ذهاب الخير أجمعه. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: « **الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**[1] »[2].

ويذكر ابن القيم أضراراً وآثاراً سيئة أخرى كثيرة للذنوب والمعاصي[3]، ثم يقول: «وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يُحيط بها العبدُ علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يُحيط بها علماً، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته»[4].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الإيمان)، باب (بيان عدد شعب الإيمان)، ٧/٢.
(٢) انظر: الجواب الكافي، في الصفحات: ٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٨، ٦٩.
(٣) راجع في هذه الآثار كلا من: الجواب الكافي، ص٥١-١٢٠؛ وطريق الهجرتين، ص٤٨٧-٤٩٣.
(٤) طريق الهجرتين، ص٤٩٣.

الفصل الثالث

مصادر قيم السلوك مع الله عند ابن القيم

يجد المتأملُ في ما كتبه ابن القيم في قيم السلوك ومنازل السـير إلى الله أن مصادره في كل ما قرره فيها يتمثل في المصادر الأساسية التالية:

الأول: القرآن الكريم.

الثاني: السنة النبوية.

الثالث: الصحابة، رضوان الله عليهم.

الرابع: الزهاد والمتصوفة الأوائل.

الخامس: الشيخ أبو إسماعيل الهروي.

السادس: شيخ الإسلام ابن تيمية.

وسأتناول -إن شاء الله- كل واحد من هذه المصادر الستة في مبحث مستقل، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: القرآن الكريم

القرآن الكريم في اصطلاح العلماء هو: كلام الله تعالى الـمُنزل على نبيه محمد ﷺ، المعجز بنفسه، الـمُتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً(1).

ويتبوأ القرآن الكريم المكانة الأولى والمقام الأسمى عند ابن القيم، شأنه في ذلك شأن سائر علماء السلف، رحمهم الله، لأنه كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ورسالته الخالدة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل بما فيه هُدي إلى صراط مستقيم، أنزله عز وجل على نبيه محمد ﷺ تبياناً لكل شيء وهدى وبشرى للمسلمين، وجعله شفاءً للناس، وشفيعاً يوم القيامة لأصحابه، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:89)؛ ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:9)؛ ويقول أيضاً: ﴿وَنُنَزِّلُ

---

(1) انظر في هذا كلاً من: ابن قدامة، روضة الناظر، ط 2 (الرياض: مكتبة المعارف، 1404هـ/1984م) 1/178-180؛ ابن اللحام، المختصر في أصول الفقه، تحقيق: د. محمد مظهر بقا (مكة المكرمة: جامعة الملك عبد العزيز، 1400هـ/1980م) ص70؛ الفتوحي، شرح الكوكب المنير، تحقيق: د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز، 1400هـ/1980م) 2/7-8؛ الشوكاني، إرشاد الفحول، ط 1 (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1356هـ/1937م) ص29-30.

﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)؛ ويقول النبي ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ»[١]، ويقول أيضاً: «فَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِه»[٢].

والقرآن الكريم هو أصل الأصول عند ابن القيم، والمصدر الأول والأساس للأحكام الشرعية عنده، سواء في مجال العقيدة أم العبادة أم الأخلاق والسلوك أم غيرها من المجالات، التي جاء الإسلام بتشريعها وتنظيمها. ولذا كان، رحمه الله، شديد الإقبال عليه والتمسك به، لا يُقدم عليه رأياً ولا اجتهاداً، وعليه بنى معرفته وتمثله لهذا الدين، فلزم نصوصه، وعلم أحكامه، وعمل بظواهره، موقناً بأنه حجة على كل مسلم ومسلمة.

يقول في مطلع كتابه «مدارج السالكين»: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين وإله المرسلين وقيوم السموات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (فضل قراءة القرآن في الصلاة وسورة القرآن) ٦/٨٩-٩٠.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، الحديث رقم (٣٣٥٩)، (باكستان، فيصل أباد: دار حديث أكادمي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ٢/٣١٧؛ كما أخرجه الترمذي في سننه، الحديث رقم (٣٠٩٤)، ٤/٢٥٥-٢٥٦، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

والضلال والغي والرشاد والشك واليقين، أنـــزله لنقرأه تدبراً ونتأمله تبصراً ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهـــد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَم من بين رياضه وأزهاره، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظـــم الذي منه الـــدخول، فلا يُغلق إذا غُلِّقت الأبواب، وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تـــزيغ به الأهواء، والنـــزلُ الكريم الذي لا يـــشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تُقلِع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته. كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً زادها هدايـــة وتبـــصيراً، وكلما بَجَّست مَعينهُ فَجَّر لها ينابيع الحِكمة تفجيراً، فهو نور البصائر مـــن عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجَواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»[1].

والمطَّلعُ على كتب ابن القيم، التي بَيَّن فيها قيم السلوك ومنازل الـــسير إلى الله تعالى، أمثال: «مدارج السالكين» و«طريق الهجـــرتين» و«روضـــة المحبين» و«الرسالة التبوكية»، يجدها ممتلئة بالآيات القرآنية الكريمة، فلا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات كل كتاب من كتبه هذه. فقد استمد مـــن

(١) مدارج السالكين، ١/١٥.

هذه الآيات القرآنية الكثيرة ما انتهى إليه من تفصيلات مسائل قيم السلوك وأحكامها وحقائقها وأقسامها...

ومن ذلك -على سبيل المثال لا الحصر- ما يلي:

١- أنه في حديثه عن مقام (التوبة) استدل بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١)، على لزوم التوبة للعبد السالك، كما استمد من هذه الآية -في معرض حديثه عن حقيقة التوبة ومكانتها- حكمه بتعليق الفلاح على التوبة. واستمد من قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:١١٢)، تحديد صفات التائبين. ولما ذكر أن مبدأ التوبة الرجوع إلى الله سبحانه بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده وأمرهم بسلوكه، استدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام:١٥٣).

٢- ويستنبط قيمة الإنابة وفضلها من:

أ- تكرار ذكرها والأمر بها في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ (الزمر:٥٤)؛ وقوله سبحانه حكاية عن نبيه شعيب عليه السلام أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨)؛ وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق:٨)؛

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ (الرعد:٢٧)، وقوله عن نبيه داود عليه السلام: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ (ص:٢٤).

ب- إخباره سبحانه بأن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، وذلك في قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ (ق:٣١-٣٤).

ج- وإخباره سبحانه بأن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ (الزمر:١٧).

٣- ويدلل على القسم الأول من قسمي الإنابة، وهو: الإنابة لربوبيته سبحانه - التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر- بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ (الروم:٣٣).

٤- ويستمد تقريره لمقام (الخوف)، ووجوبه، والثناء على أهله من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥)؛ وقوله سبحانه: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠)؛ وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة:٤٤)؛ وقوله في مدح أهل الخوف والثناء

عليهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ إلى قولـه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٧-٦١)؛ وقوله في الثناء على أنبيائـه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ (الأنبياء:٩٠)؛ وقوله عن ملائكته الذين أمّنهم من عذابه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ (النحل:٥٠).

٥- ويستمد مـن قولـه تعـالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥) حكمه بأن الخوف شرط في تحقق الإيمان. كما يستمد من هذه الآية الكريمة ومن قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة:٤٤)؛ ومن قوله كذلك: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة:١٨)؛ يستمد منها حكمه بأن الخوف لا يصلح إلا لله وحده.

٦- ويستشهد في الحث على الزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة بالعديد من الآيات القرآنية، منـها: قولـه تعـالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ (النساء:٧٧)؛ وقولـه سبحانه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:١٣١)؛ وقولـه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (الكهف:٧-٨).

٧- ويستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾، في بيانه حقيقة الرجاء والفرق بينه والتمني، حيث يقرر أن الرجاء إنما يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الفوز والظفر، بينما التمني ينحصر في حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، بقرينة أن الله سبحانه طوى في هذه الآية الكريمة بساط الرجاء إلا عن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيله.

٨- ويستنبط قيمة «الرجاء» وفضله من مدحه سبحانه لأهله وثنائه عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١).

٩- ويستنبط مفهوم المراقبة وحقيقتها من قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (البقرة:٢٣٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد:٤)؛ وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق:١٤)؛ وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:١٩).

١٠- ويورد في بيان قيمة الإخلاص وضرورته العديد من الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة:٥)؛ وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ (الزمر:٢-٣)؛ وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

١١- ويستدل على وجوب الاستقامة بقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ (هود:١١٢)؛ وبقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ (فصلت:٦)؛ كما يستدل على ثمراتها وعواقبها الحسنة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:٣٠)؛ وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأحقاف:١٣-١٤).

١٢- ويستمد من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (المائدة:٢٣)، على أن التوكل شرط من شروط تحقق الإيمان

ولازم من لوازمه. ويدلل على أهمية التوكل بأن الله سبحانه جمع بينه والإسلام في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس:٨٤)، وجمع بينه والتقوى في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق:٢-٣)، وجمع بينه والهداية في قوله لنبيه ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ (النمل:٧٩).

١٣- ويستدل على وجوب التوكل بالكثير من الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم:١١)، وقوله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء:٨١)؛ وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الفرقان:٥٨)؛ وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

١٤- ويبين في معرض حديثه عن فضائل الصبر في القرآن الكريم أن الله سبحانه ذكر الصبر في القرآن الكريم في تسعين موضعاً على ستة عشر وجه، منها: الأمر به في نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة:١٥٣)؛ ومنها: إيجابه سبحانه محبته للصابرين، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦)؛ ومنها: إيجاب الجزاء

لهم بأحسن أعمالهم، كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٦).

١٥- ويستدل على أن العبد لا ينفعه يوم القيامة في الفوز بدار الجنان والنجاة من النيران إلا صدقه، يستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (المائدة:١١٩).

١٦- ويبين في معرض حديثه عن فضائل الذكر وفوائده أن الذكر ورد في القرآن الكريم على عشرة أوجه، منها: الأمر به في نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب:٤١-٤٢)؛ ومنها: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف:٢٠٥)؛ ومنها: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة:١٠).

١٧- وفي معرض حديثه عن ضابط (العبودية الخالصة لله تعالى) يستدل بقوله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩)، على لزوم إخلاص العبودية لله ما دام العبد في دار التكليف ليصح له سيره إلى الله تعالى. ويستنبط قيمة إخلاص العبودية لله وقدره من إجماع الرسل، عليهم السلام، على الدعوة إليه، فقد قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (الأعراف:٥٩)؛ وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم.

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥).

١٨- وفي معرض حديثه عن ضابط (الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما) أورد بعض الآيات القرآنية الدالة على وجوب هذا الضابط، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ (الأحزاب:٣٦)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ (النساء:٥٩).

١٩- وفي معرض حديثه عن قبح أثر الذنوب والمعاصي والضرر الناشئ منها أورد قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ (فاطر:١٠)؛ للدلالة على أن العزة إنما هي في طاعة الله، وأن المعاصي تورث الذل ولابد.

المبحث الثاني: السنة النبوية

السنة في اصطلاح العلماء هي: ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير في غير الأمور الطبعية[1].

والسنة المطهرة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي وأصل أساس من أصول الاستدلال والاستنباط، وتتبوأ المرتبة الثانية عند ابن القيم -وسائر علماء السلف- بعد كتاب الله عز وجل من حيث الاستمداد منها والاحتجاج بها. وقد أُشتهر عنه، رحمه الله، إجلاله لها وشدة تمسكه واهتمامه بها، وقد حافظ عليها محافظته على القرآن الكريم، ورأى استقلالها بتشريع الأحكام ووجوب العمل بها، وإن كانت من حيث الاعتبار وقوة الاستدلال متأخرة عن الكتاب.

فقد عقد في كتابه (أعلام الموقعين) فصلاً بعنوان (الرسول أول من بلّغ عن الله)، قال فيه: «أول من قام بهذا المنصب الشريف -التبليغ عن الله سبحانه- سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين عبد الله ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده، فكان يُفتي عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له أحكم الحاكمين: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

---

(١) انظر في هذا كلاً من: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، تعليق: إسماعيل الأنصاري (مصر: دار إحياء السنة النبوية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ١/٨٦؛ نجم الدين الطوفي، شرح مختصر الروضة، تحقيق: عبد الله التركي، ط ١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ٢/٦٠-٦١؛ ابن اللحام، المختصر في أصول الفقه، ص٧٤؛ الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٣٣.

ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص:٨٦)؛ فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلاً»[1].

ويقول في موضع آخر: «قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء:٥٩)؛ فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمَرَ وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أُوتي الكتاب ومثله معه،... وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته»[2].

ويقول أيضاً: «السنة مع الكتاب على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بياناً لما أُريد بالقرآن وتفسيراً له.

---

(١) أعلام الموقعين، ١/١١.
(٢) المصدر السابق، ١/٤٨-٥٠، بتصرف يسير.

الثالث: أن تكون مُوجِبة لحكـــم سكت القرآن عن إيجابه، أو مُحرِمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام.

فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القـــرآن فهـــو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته. وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله.

ولو كان رسول الله ﷺ لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة به، وإنه إذا لم تجب طاعتـــه إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ (النساء: ٨٠)...؛ فـــسنن رســـول الله ﷺ أجل في صـــدورنا وأعظـــم وأفرض علينا أن لا نقبلها إذا كانـــت زائـــدة على ما في القـــرآن، بل على الرأس والعينيـــن،... ولو ساغ لنا رد كـــل سنة زائـــدة على نص القرآن، لبطلت سنن رســـول الله ﷺ إلا ســـنة دل عليها القرآن»[1].

ولذا كان الاستمداد من السنة المطهرة والاستنباط منها -ومن الكتاب قبل ذلك- سمة بارزة من سمات منهج ابن القيم في سائر كتبه، كمـــا أنـــه، رحمه الله، لم يذكر منـــزلة من منازل السائرين إلى الله إلا وبـــيَّن أدلتـــها وشواهدها وتفصيلاتها من السنة ما أمكنه ذلك.

---

(١) أعلام الموقعين، ٢/٣٠٧-٣٠٩؛ وراجع: الطرق الحكمية فـــي الـــسياسة الـــشرعية (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٩١هـ-١٩٧١م) ص٧٢-٧٤.

ومن ذلك – على سبيل المثال لا الحصر– ما يلي:

١ – أنه في حديثه عن مقام (التوبة) استدل بسنة النبي ﷺ لبيان ضرورة التوبة ولزومها للعبد السالك، حيث يقول: «وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[1]، وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة**»[2]، وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ**﴾ (النصر: ١)، إلى آخرها إلا قال فيها « **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي** »[3]،... فصلوات الله وسلامه عليه أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث الأغر المزني عن ابن عمر، رضي الله عنهما، في كتاب (الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب (التوبة)، ٢٤/١٧، ولفظه في آخره (مائة مرة)؛ وأخرجه بدون الأمر بالتوبة ابن ماجه في سننه في كتاب (الأدب)، الباب (٥٧)، الحديث رقم (٣٨١٦)، ص٦٢٩، وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، الحديث رقم (٤٧٢٦)، ٣٥٠/٨، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»؛ كما أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب (الأدب)، الباب (٥٧)، الحديث رقم (٣٨١٤)، ص٦٢٩، وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن، كما صحح إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة، الحديث رقم (٥٥٦)، ٩٦/٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب (التفسير)، الباب (١١٠)، الحديث رقم (٤٩٦٧)، ٧٣٣/٨؛ وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (الصلاة)، باب (ما يقال في الركوع والسجود) ٢٠٢/٤.

(٤) مدارج السالكين، ١٤٢/١.

٢- ويستدل بقول النبي ﷺ: «... لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1]، في معرض حديثه عن ضرورة إياس العبد السالك من النجاة من النار يوم القيامة بعمله، واعتقاده أن النجاة إنما هي برحمة الله وفضله، باعتبار ذلك أحد أمور ثلاثة لا يستقيم للعبد الرجوع إلى الله سبحانه والإنابة إليه إلا بها[2].

٣- ويستدل بقول النبي ﷺ : «ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها»[3] لإثبات أن إيقان العبد السالك بأن الدنيا ظل زائل وخيال زائر مما يصحح له زهده في الدنيا وإقباله على الآخرة. ويقرر أن مما يصحح للعبد هذا الزهد أيضاً إيقانه بأن وراء هذه الدنيا داراً أعظم منها قدراً وأجلّ خطراً؛ وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا كما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يرجع»[4].

٤- ويستمد من قوله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»[5] -يستمد منه- حكمه

(١) أخرجه البخاري - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - في صحيحه في كتاب (المرضى)، الباب (١٩)، الحديث رقم (٥٦٧٣)، ١٠/١٢٧. كما أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (صفة القيامة والجنة والنار)، باب (لن يدخل أحد الجنة بعمله)، ١٧/١٦٠.
(٢) راجع: مدارج السالكين، ١/٣٣٣.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ١٧/١٩٢.
(٥) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، في سننه في كتاب (صفة القيامة)، الباب (١٨)، الحديث رقم (٢٤٥٥)، ٤/٦٣٣.

بأن الرجاء لابد أن يقارنه ثلاثة أمور هي: محبة ما يرجوه، وخوفه من فواته، وسعيه في تحصيله قدر الإمكان. وأما الرجاء الذي لا يقارنه شيء من ذلك، فهو في الحقيقة من باب الأماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف. والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات[1].

٥- ويستنبط مفهوم «المراقبة» وحقيقتها من قوله ﷺ لما سأله جبريل، عليه السلام، عن الإحسان: « **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2].

٦- ويستشهد بالعديد من الأحاديث النبوية للدلالة على ضرورة «الإخلاص»، منها: الحديث القدسي «**من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء**»[3]، وقوله ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أجسامكم وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ** »[4].

٧- ويستدل على وجوب الاستقامة بثلاثة أحاديث نبوية، حيث يقول ما نصه: «...وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه أنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه: قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ، قَالَ: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثم اسْتَقِمْ**»[5]، وفيه عن

(١) انظر: الجواب الكافي، ص٣٩.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) تقدم تخريجه، (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) أخرجه مسلم.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (البر والصلة والآداب) ١٦/١٢١.
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الإيمان)، باب (جامع أوصاف الإسلام)، ٢/٨-٩.

ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « **اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةُ وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلا مُؤْمِنٌ**»[1]. والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنجُوَ أَحَدٌ مِنكُمْ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[2]، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة وهي: السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال. وأخبر في حديث ثوبان أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله ولا يُعجب به ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله»[3].

٨- ويستنبط -في حديثه عن الفرق بين التوكل والعجز- من سنة النبي ﷺ الفعلية حكمه، رحمه الله، بضرورة اعتماد القلب على الله وحده مع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (٢٢٣٧٨)، ٣٧/٦٠، وقد صححه محققو المسند؛ كما أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب (الطهارة وسننها)، الباب (٤)، الحديث رقم (٢٧٧)، ص٦٦؛ وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٢)أخرجه البخاري – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه – في صحيحه في كتاب (المرضى)، الباب (١٩)، الحديث رقم (٥٦٧٣)، ١٠/١٢٧. كما أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (صفة القيامة والجنة والنار)، باب (لن يدخل أحد الجنة بعمله)، ١٧/١٦٠.

(٣) مدارج السالكين، ٢/٨٠.

فعل الأسباب الجالبة للمنافع والدافعة للمضار، فنجده يقول: «والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته، اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين، وكان يلبس لامته ودرعه، بل ظَاهَرَ يوم أُحُدٍ بين درعين، واختفى في الغار ثلاثاً، فكان متوكلاً في السبب لا على السبب. وأما العجز: فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل؛ ولعمر الله إنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر و لم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب، فهذا توكله عجز وعجزه توكل»[1].

٩- ويستنبط من السنة النبوية بعض آداب الصبر على المصيبة، حيث يستنبط من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «أَتَى عَلَى امْرَأَةٍ تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا فَقَالَ لَهَا: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَقَالَتْ: وَمَا تُبَالِي بِمُصِيبَتِي، فَلَمَّا ذَهَبَ قِيلَ لَهَا إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَأَتَتْ بَابَهُ فَلَمْ تَجِدْ عَلَى بَابِهِ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) الروح، ص٣٤٣-٣٤٤.

لَمْ أَعْرِفْكَ فَقَالَ: **إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**[1]»[2]، يستنبط من هـذا الحديث أدب «الصبر والاحتساب عند أول حلول المصيبة أو البلاء بالعبد»، ويقول: «فإذا كان آخر الأمر الصبر؛ والعبد غير محمود، فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره. وقد قال بعض العقلاء: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم»[3].

كما يستنبط من حديث أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، أَنَّهَا قَالَتْ: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ، أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ»[4]، يستنبط منه أدب «الاسترجاع، وهو قول المُبتلى: إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويقول معلقاً على الحديث: «فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضا عن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب (الجنائز)، الباب (٣١)، الحديث رقم (١٢٨٣)، ١٤٨/٣؛ وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (الجنائز)، باب (الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى) ٢٢٧/٦.

(٢) انظر: عدة الصابرين، ص٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص٦٠.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الجنائز)، باب (ما يقال عند المصيبة) ٢٢٠/٦.

الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله»[1].

١٠- وفي معرض حديثه عن حقائق «الصدق» يستنبط من قوله ﷺ: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»[2] أحد علامات الصدق، وهي: حصول الطمأنينة للقلب والسكون للنفس[3].

١١- ويستدل على فضل الذكر والذاكرين بالعديد من الأحاديث النبوية، منها: قوله ﷺ لأصحابه بأن جبريل، عليه السلام، أخبره بأن الله سبحانه يباهي بأهل الذكر ملائكته[4].

١٢- ويستدل على وجوب الالتزام بالسنة والأخذ بها والتحاكم إليها بقول النبي ﷺ: **«يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من شيء اتّبعناه، إلا أني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه»**[5].

١٣- ويستنبط من قوله ﷺ **«وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْـرَمُ الـرِّزْقَ بِالـذَّنْبِ يُصِيبُهُ»**[6]، حكمه بأن من الآثار السيئة للذنوب والمعاصي والأضرار الناشئة منها: حرمان المذنب والعاصي الرزق.

---

(١) عدة الصابرين، ص٨٨.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ٢/٢٠٧-٢٠٨.
(٤) راجع: المصدر السابق، ٢/٣٢٠-٣٢٣.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه الإمام أحمد.

المبحث الثالث: الصحابة، رضوان الله عليهم

الصحابي في اصطلاح جمهور العلماء : «من لقي النبي ﷺ مؤمناً بـه، ولو ساعة، سواء روى عنه أم لا»[1].

وللصحابة، رضي الله عنهم، عند ابن القيم مقام سام جداً ومنـزلة عالية رفيعة، فهم كما يقول، رحمه الله: «ألين الأمة قلوباً، وأعمقها علمـاً، وأقلـها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيمانـاً، وأعمهـا نـصيحة، وأقربهـا إلى الله وسيلة»[2]. وكما يقول أيضاً في بيان ما امتازوا به عن المتأخرين عنهم: «وكانوا أقرب إلى أن يوفقـوا في مدارك دلالات الألفاظ والأقيسة لما لم نوفق له نحـن، لما خَصَّهم الله تعالى به من توقد الأذهان، وفصاحة اللـسان، وسـعة العلـم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة المعارض أو عدمـه، وحـسن القصد، وتقوى الرب تعالى، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعـاني الـصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بـهم إلى النظر في الإسناد وأحـوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل، ولا إلى النظـر في قواعـد الأصـول وأوضاع الأصوليين، بل قد غنوا عن ذلك كله، فليس في حقهم إلا أمران:

أحدهما: قال الله تعالى كذا وقال رسوله كذا، والثاني: معنـاه كـذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة بهما، فقواهم متوفرة

---

(١) الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٧٠؛ وانظر: ابن اللحام، المختصر في أصول الفقـه، ص٨٨.

(٢) أعلام الموقعين، ١/١١.

مجتمعة عليهما...، هذا إلى ما خُصوا به من كثرة المعاون وقلة الصارف، وقرب العهد بنور النبوة، والتلقي من تلك المشكاة النبوية»[1].

ويتساءل، رحمه الله: «هل كان في الصحابة من إذا سمع نص رسول الله ﷺ عارضه بقياسه أو ذوقه أو وَجْده أو عقله أو سياسته؟، وهل كان قط أحد منهم يُقدم على نص رسول الله ﷺ عقلاً أو قياساً أو ذوقاً أو سياسة أو تقليد مقلد؟، فلقد أكرم الله أعينهم وصانها أن تنظر إلى وجه مَنْ هذا حاله أو يكون في زمانهم. ولقد حكم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على من قَدَّم حكمه على نص الرسول بالسيف، وقال: «هذا حكمي فيه»[2].

ولذا فهم أفقه الأمة وأعلمهم بمراد الله ومراد رسوله ﷺ، وقد جاء القرآن الكريم في التشريع بموافقة بعضهم في رأيه. يقول ابن القيم: «والمقصود أن أحداً ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقته؟، كما رأى عمر في أسارى بدر أن تُضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته، ورأى أن تُحجب نساء النبي ﷺ فنزل القرآن بموافقته، ورأى أن يُتخذ من مقام إبراهيم مُصَلى فنزل القرآن بموافقته، وقال لنساء النبي ﷺ لما اجتمعن في الغيرة عليه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ (التحريم:٥)،

---

(١) المصدر السابق، ٤/١٤٨-١٥٠ بتصرف يسير.

(٢) مدارج السالكين، ١/٢٤٩.

فنـــزل القرآن بموافقته، ولما تُوفّي عبد الله بن أبي قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوبه، فقال: يا رسول الله إنه منافق، فـــصلى عليـــه رسول الله ﷺ، فأنـــزل الله عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة:٨٤)؛ وقد قـــال سعد بن معاذ لمّا حكّمه النبي ﷺ في بني قريظة: إني أرى أن تقتل مقاتلتـــهم وتسبى ذرياتهم وتغنم أمـــوالهم، فقال النبي ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمـــوات**»[1].

ولما اختلفوا إلى ابن مسعود شهراً في المفّوضة قال: أقول فيها برأيـــي، فـــإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريء منه، أرى أن لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط ولها الميراث وعليها العدة، فقام ناس من أشجع فقالوا: نَشهدُ أن رسول الله ﷺ قضى في امرأة منا يقال لها بروع بنت واشق مثل ما قضيت به، فما فرح ابن مسعود بـــشيء بعـــد الإسلام فرحهُ بذلك. وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنــــزلة أن يكـــون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا»[2].

---

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى)، (بيروت: دار صـادر) ٣/٤٢٦؛ وكذا الحاكم في (المستدرك)، الحديث رقم (٢٥٧٠)، تحقيق: مصطفى عبـد القـادر عطـا، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ٢/١٣٤-١٣٥؛ وأورده الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) برقم (٢٧٤٥)، ٦/٥٥٦؛ وروى نحوه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب (مناقب الأنصار)، الباب (١٢)، الحديث رقـم (٣٨٠٤)، ٧/١٢٣؛ وكذا الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الجهاد والسير)، باب (جواز قتال من نقض العهد)، ١٢/٩٤.

(٢) أعلام الموقعين، ١/٨١.

وعقد ابن القيم في كتابه (أعلام الموقعين) فصلاً بعنوان (الصحابة سادة المفتين والعلماء)، قال فيه: «وكما أن الصحابة سادة الأمة وأئمتها وقادتها، فهم سادات المفتين والعلماء. قال الليث عن مجاهد: العلماء أصحاب محمد ﷺ، وقال سعيد عن قتادة[1] في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ (سبأ:٦)؛ قال: أصحاب محمد ﷺ»[2]، ثم أفاض، رحمه الله، في بيان علمهم وخصالهم وفضلهم[3].

ولكل ما تقدم يرى ابن القيم حجية قول الصحابي ووجوب اتباعه لمن جاء بعد عصر الصحابة، وقد بسط الكلام في ذلك فأقام عليه ستة وأربعين دليلاً[4].

فلا غرو بعد ذلك أن يستشهد ابن القيم بأقوال الصحابة، رضي الله عنهم، ويُعنى بسيرهم، وأن يتأسى بهم ويستمسك بهديهم، ويستمد من هذا الهدي قيم السلوك السوي في السير إلى الله، فقد كانوا - في نظره- مع فضلهم ودينهم وجهادهم وقلة تكلفهم أعلم الخلق بالله بعد رسله، وأعرف الناس بمقامات السالكين ومنازل السائرين إليه سبحانه[5].

---

(١) أبو الخطاب قتادة بن دعامة الدوسي، المفسر الحافظ، كان رأساً في التفسير والحديث ومفردات اللغة العربية، توفي بواسط سنة ١١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ٥/٢٦٩؛ وتهذيب التهذيب، ٨/٣٥١.

(٢) أعلام الموقعين، ١/١٤.

(٣) راجع : المصدر السابق، ١/١٤-٢١.

(٤) راجع: المصدر السابق، ٤/١٢٣-١٥٣.

(٥) انظر: مدارج السالكين، ٣/٣٢٢.

ومن شواهد استمداده من هدي الصحابة واستشهاده بأقوالهم وأحوالهم مما يخص موضوع بحثنا هنا ما يلي:

١- يستشهد في معرض بيانه لحقيقة (التوبة النصوح) المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (التحريم:٨)؛ يستشهد بما أُثر عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب، رضي الله عنهما، أنهما قالا: «التوبة النصوح: أن يتوب، أي العبد، من الذنب، ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع»[١].

٢- وفي حديثه عن تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر يُورد آراء بعض الصحابة، كأبي هريرة وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت، رضي الله عنهم، في بيان المراد باللمم المذكور في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (النجم:٣٢)؛ وينتهي إلى أن «الصحيح قول الجمهور، وهو: أن اللمم صغائر الذنوب، ...، فهذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وابن عباس...»[٢].

٣- ويقرر أن التوبة محفوفة بمحاسبتين، ويستشهد بأثر لعمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، في المحاسبة، حيث يقول: «والتحقيق أن التوبة بين

(١) المصدر السابق، ١/٢٣٧-٢٣٨.
(٢) المصدر السابق، ١/٢٤٣.

محاسبتين، محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها...، وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ (الحشر:١٨)، فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك والنظر هل يصلح ما قدَّمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟. والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويُبيِّض وجهه عند الله. قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ (الحاقة:١٨)»، أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم»[١].

٤- ويحتج بأحوال الصحابة في بطلان ما ذهب إليه المنحرفون من أهل السلوك والتصوف في اشتراطهم لتمام مقام (التوبة) فناء العبد السالك وغيبته عن شهود توبته وتوبته من رؤية هذه التوبة، ويطالبهم بالدليل على ما ذهبوا إليه من القرآن أو السنة أو كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم[٢].

٥- ويقرر -في مقام (الخوف)- أن درجة الخوف من الله إنما تكون على حسب العلم بالله والقرب منه والمنـزلة عنده، وأنه كلما كان العبد

---

(١) المصدر السابق، ١/١٣٥.

(٢) راجع: المصدر السابق، ١/٢٠٨-٢١١.

أعلم بالله وإليه أقرب كان خوفه منه أشد[1]، ويستشهد بأحوال الصحابة، رضي الله عنهم، في شدة خوفهم من الله، حيث يقول: «من تأمل أحوال الصحابة، رضي الله عنهم، وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعاً بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق، رضي الله عنه، يقول: «وددتُ أني شعرة في جنب عبد مؤمن»، ذكره أحمد عنه، وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»، وكان يبكي كثيراً ويقول: «ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا». وكان إذا قام للصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل. وأتى بطائر فَقلَّبه ثم قال: «ما صِيْدَ من صَيْد، ولا قُطعت شجرة من شجرة إلا بما ضَيَّعَت من التسبيح». ولما احتُضِرَ قال لعائشة: «يا بُنية إني أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب»، وقال: «والله وددتُ أني كنتُ هذه الشجرة تُؤكل وتعضد». وقال قتادة: «بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب».

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى إذا بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ (الطور:٧)؛ بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: «ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر لي ثلاثاً»، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه،

(١) انظر: طريق الهجرتين، ص٥١١، ٥٢٢.

فيبقى في البيت أياماً يُعاد، يحسبونه مريضاً. وكان في وجهه، رضي الله عنه، خطان أسودان من البكاء...

وهذا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيته، ويقول: «لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يُؤمر بي لاخترتُ أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصيرُ».

وهذا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وبكاؤه وخوفه. وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى. قال: «فأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولّت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».

وهذا أبو الدرداء، رضي الله عنه، كان يقول: «إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علمتَ، فكيف عملتَ بما علمت؟».

وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شراباً على شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم».

وكان عبد الله بن عباس، رضي الله عنه، أسفل عينيه مثل الشِراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر، رضي الله عنه، يقول: «يا ليتني كنتُ شجرة تُعضد، ووددتُ أني لم أُخلق»...

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: «وددتُ أني كبش فـذبحني أهلـي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي»... وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»[1].

٦- ويستنبط من قول علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «لا يرجُونّ عبدٌ إلاّ ربَّه، ولا يخافن إلاّ ذنبه»، يستنبط منه أن الرجاء متعلق بالرب تعالى، لأن رحمته من لوازم ذاته، وهي سبقت غضبه، وأما الخوف فمتعلق بالذنب فهو سبب المخافة[2].

٧- ويشير -في مقام (الزهد)- إلى كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام والحسن بن علي، رضي الله عنهم، ويذكر أنهم نماذج رائعة في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع ما كان لهم من حظ في الدنيا، وأنه من سِيَرهم تُعـرف حقيقـة (الزهـد) ومفهومه الصحيح[3].

٨- ويُورد في بيان حقيقة (الاستقامة) المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ (الجن:١٦)؛ ما أُثـر عـن الصحابة فيها، حيث يقول: «سُئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكـر

---

(١) الجواب الكافي، ص٤٠-٤٢. ويستشهد أيضاً بخوف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من فوات الإيمان. راجع: طريق الهجرتين، ص٥٢٢؛ والجواب الكافي، ص٤٢.
(٢) راجع: طريق الهجرتين، ص٥١٤-٥١٥.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ٢/١١-١٢.

الصديق، رضي الله عنه، عن الاستقامة، فقال: «أن لا تشرك بالله شيئاً»، يريد الاستقامة على التوحيد. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب». وقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: «استقاموا: أخلصوا العمل لله». وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه وابن عباس، رضي الله عنهما: «استقاموا: أدوا الفرائض»[1].

٩- ويؤكد على ضرورة فعل الأسباب الجالبة للنفع والخير والدافعة للضر والشر مع التوكل على الله تعالى، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله ولا يقدح فيه، وأن التجرد من هذه الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً، ويرد على من انحرف عن المنهج الحق في هذه المسألة من بعض العُبَّاد والسالكين، ويحتج عليهم بحال النبي ﷺ وحال أصحابه، رضي الله عنهم، في التوكل. ومما قاله بهذا الشأن قوله:

«... وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عرياناً -كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة-، واستأجر دليلاً مشركاً يدله طريق الهجرة، وقد هدى به العالمين وعصمه من الناس أجمعين، وكان يَدَّخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه، وهم أولو التوكل حقاً. وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة أو لحق أثراً

---

(١) المصدر السابق، ٢/٧٩.

من غبارهم. فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها، بها يُعلم صحيحها من سقيمها، فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تُشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملأوا بذلك التوكل القلوبَ هدىً وإيماناً...»[1].

١٠- وفي تحليله لأسباب نشوء الصبر على البلاء؛ يذكر أن من هذه الأسباب: شهود ترتب البلاء على العبد بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠)، ويستشهد في ذلك بما أُثر عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع بلاءٌ إلا بتوبة»[2].

١١- ويستشهد في بيان فضل (الصبر) بالعديد من الآثار، منها: ما أُثر عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[3]، وما أُثر عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: «الصبر مطية لا تكبو»[4]، وما أُثر عن ابن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»[5].

---

(١) المصدر السابق، ٢/١٠٣.
(٢) طريق الهجرتين، ص٤٩٩.
(٣) عدة الصابرين، ص١٠٢.
(٤) المصدر السابق، ص٢١، ص١٠٢.
(٥) المصدر السابق، ص١١٥.

١٢- ويتابع أبا إسماعيل الأنصاري الهروي[1] في أن إحدى درجات (الصدق) لدى العبد السالك: أن لا يُحب أن يعيش إلا ليَشْبع من رضى محبوبه ويقوم بعبوديته، ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه، لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها. ويستشهد في ذلك بما أُثر عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «لولا ثلاث لما أحببتُ البقاء: لولا أن أحملُ على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر»[2]، وبما أُثر عن معاذ ابن جبل، رضي الله عنه، أنه قال عند موته: «اللهم إنك تَعلُم أني لم أكن أُحب البقاء لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلَق الذكر»[3].

(١) سترد ترجمته، إن شاء الله، في المبحث الخامس من هذا الفصل.
(٢) مدارج السالكين، ٢/٢١٤؛ وانظر: مفتاح دار السعادة، ص١٢٣.
(٣) مدارج السالكين، ٢/٢١٤.

المبحث الرابع: الزهاد والمتصوفة الأوائل

لقد امتاز المتقدمون من الزهاد والمتصوفة وأرباب السلوك بمزايا عديدة، منها: صفاء القلوب، وصدق العزائم، وحسن السلوك. كما كانت لهم الإشارات البديعة، والتوجيهات النافعة فيما يتعلق بأعمال القلوب وآفات النفوس وتصحيح المعاملة مع الله عز وجل.

وقد أثنى ابن القيم على الكثير منهم، كسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي[1]، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري[2]، ويحيى بن معاذ الرازي[3]، وأبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله[4]، وغيرهم، وقال: «إنهم تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيناً،...، وهم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة، ولهذا كلامهم قليل فيه البركة، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة»[5].

---

(١) محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، أبو طالب، الإمام الزاهد العارف، شيخ الصوفية، صاحب كتاب (قوت القلوب)، توفي سنة ٣٨٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ١٦/٥٣٦-٥٣٧؛ وشذرات الذهب، ٣/١٢٠.

(٢) سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، أبو عثمان، الإمام المحدث الواعظ القدوة، توفي سنة ٢٩٨هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٧٠؛ وشذرات الذهب، ٢/٢٣٠.

(٣) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، المحدث الواعظ، ومن كبار المشايخ، له كلام جيد مشهور في الوعظ والإرشاد، توفي سنة ٢٥٨هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٠٧؛ وشذرات الذهب، ٢/١٣٨.

(٤) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي، الإمام العابد القدوة، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ٥/١٠٣-١٠٥؛ وشذرات الذهب، ١/١٤٠.

(٥) مدارج السالكين، ١/١١٣.

وذكر أنهم أعمق علماً من المتأخرين، وأقل تكلفاً، وأكمل بصائر، وكانت همتهم: مراعاة أصول السلوك، وضبط قواعدها، وشد معاقدها. وأن هممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء[1].

وحدد مجال نشاطهم بثلاثة ميادين رئيسة:

«أحدها: الكشف عن منازل السير.

الثاني: الكشف عن عيوب وآفات الأعمال ومفسداتها.

الثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصفات وحقائق التوحيد والمعرفة»[2].

وعَقَّبَ على ذلك فقال: «وهذه الأبواب الثلاثة هي مجامع علوم القوم، وعليها يحومون، وحولها يدندنون، وإليها يُشَمِّرون، فمنهم من جُلُّ كلامه ومعظمه في السير وصفة المنازل، ومنهم من جُلّ كلامه في الآفات والقواطع، ومنهم من جُلّ كلامه في التوحيد والمعرفة وحقائق الأسماء والصفات.

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق، فيستعين به على مطلبه، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به، فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقام معلوم»[3].

---

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق، ٢/٢٥.
(٣) المصدر السابق.

ولكل ما تقدم أكثَرَ ابن القيم من ذكـــر أقـــوال هـــؤلاء المتقـــدمين وأحوالهم، يستأنس بها -ويستدل بها أحياناً- في ما يذهب إليه ويقرره مـــن مسائل في منازل العبودية وتفصيلاتها، ولاسيما في كتابه (مدارج السالكين).

ومن ذلك على سبيل المثال -لا الحصر- ما يلي:

١- يستشهد بأقوال بعضهم في تعريف (الخوف) وبيان حقائقه، حيث يقول: «قال أبو القاسم الجنيد: «الخوف توقـــع العقوبـــة علـــى مجـــاري الأنفاس...»، وقال أبو حفص: «الخوف سوط الله يُقوِّم به الشاردين عـــن بابه»، وقال: «الخوف سراج في القلب به يُبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه...»، وقال أبو سليمان الداراني: «ما فارق الخوف قلباً إلا خرب»، وقال إبراهيم بن سفيان: «إذا سكن الخوف القلـــوب أحـــرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها»، وقال ذو النون: «النـــاس علـــى الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق»[1].

٢- ويذكر ما أُثر عنهم في تعريف (الزهد) وبيان حقائقه وفـــضائله، فيقول: «قال سفيان الثوري: «الزهد في الدنيا قصر الأمل، لـــيس بأكـــل الغليظ، ولا لبس العباء...»، وقال يحيـــى بن معاذ: «الزهد يُورث السخاء بالملك، والحب يُورث السخاء بالروح...»، وقال ابن الجلاء: «الزهد هـــو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليـــك الإعـــراض

---

(١) المصدر السابق، ١/٣٨٦-٣٨٨.

عنها»، وقال ابن خفيف[1]: «الزهد وجود الراحة في الخروج من الملـــك»، وقال أيضاً: «الزهد سلو القلب عـــن الأســـباب ونفـــض الأيـــدي مـــن الأملاك»،... وقال الجنيد: «الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد». وقال الإمام أحمد: «الزهد في الدنيا قصر الأمل»،... وقال عبد الله بن المبـــارك: «هو الثقة بالله مع حب الفقر»،... وقال عبد الواحد بن زيـــد: «الزهـــد: الزهد في الدينار والدرهم»، وقال أبو سليمان الداراني: «ترك ما يشغل عن الله»، وهو قول الشبلي. وسأل رُويم الجنيد عن الزهد؟، فقال: «استـــصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب»، وقال مرة: «هو خلو اليد عن الملك والقلب عن التتبع»،... وقال الإمام أحمد بن حنبل: «الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهـــد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين»[2].

٣- ويذكر ما أُثر عنهم في تعريف (المراقبة) وبيان حقيقتها، فيقـــول: «قال الجنيد: «من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير»، وقال ذو النون: «علامة المراقبة إيثار ما أنـــزل الله، وتعظيم ما عظـــم الله، وتصغير ما صغَّر الله»،... وقال إبراهيم الخواص: «المراقبة خلـــوص الـــسر والعلانية لله عز وجل»،... وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى

---

(١) محمد بن خفيف الضبي الفارسي الشيرازي، أبو عبد الله، أحد مشاهير الصوفية، ومن أولاد الأمراء، كان شيخ إقليم فارسي، توفي سنة ٣٧١هـ. انظر: البدايـــة والنهايـــة، ٣١٩/١١؛ وسير أعلام النبلاء، ٣٤٢/١٦-٣٤٧.

(٢) مدارج السالكين، ١٠/٢-١١.

في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته»[1].

٤- وبعد أن ذكر الآيات الواردة في منزلة (الإخلاص)، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك:٢)، يُورد ما أُثر عن الفضيل بن عياض، رحمه الله، في بيان معنى عبارة (أيكم أحسن عملاً) الواردة في الآية الكريمة، فيقول: «قال الفضيل بن عياض: «هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟، فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف:١١٠)»[2].

كما يُورد ما أُثر عنه وعن غيره من أرباب السلوك من أقوال في حقيقة (الإخلاص) وقيمته وفضله، فيقول: «... ومن كلام الفضيل: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يُعافيك الله منهما»، وقال الجنيد: «الإخلاص سرٌ بين الله والعبد لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله»... وقال مكحول: «ما أخلص عبدٌ قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على

---

(١) المصدر السابق، ٢/٥٠.

(٢) المصدر السابق، ٢/٦٨.

لسانه»،... وقال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء»[1].

٥- ويُورد أقوال بعضهم في بيان حقيقة (التوكل) ودرجاته، فيقول: «قال الإمام أحمد: «التوكل عمل القلب»،... وقال سهل: «التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد»،... وسُئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟، فقال: «إذا رضي الله وكيلاً»،... وقال ابن عطاء: «التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب، مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها»،... وقال ذو النون: «هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه»،... وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد،... وقال أبو علي الدقاق: «التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض. فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. فالتوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية».

فالتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين...، والتوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين»[2].

---

(١) المصدر السابق، ٢/٧٠.
(٢) المصدر السابق، ٢/٨٧-٨٩.

٦- كما يُورد أقوال بعضهم في بيان حقيقة (الصبر)، فيقول: «سُئل الجنيد بن محمد عن الصبر؟، فقال: «تجرع المرارة من غير تعبس». وقال ذو النون: «هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة»...، وقال عمرو بن عثمان المكي: «الصبر هو الثبات مع الله وتلقّي بلائه بالرحب والدعة»...، وقال الخواص: «الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة»[1].

ويستشهد في بيان فضل (الصبر) بما أُثر عنهم في ذلك، فيقول: «قال الحسن: «الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده»، وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه»، وقال سليمان بن القاسم[2]: «كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠)، قال: كالماء المنهمر»...، وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ (السجدة:٢٤)،: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً»»[3].

٧- ويُورد كذلك كلماتهم في بيان حقيقة (الصدق) وفضله، فيقول: «قال عبد الواحد بن زيد: «الصدق الوفاء لله بالعمل»...، وقال إبراهيم

---

(١) عدة الصابرين، ص٢١.
(٢) لم أعثر له على ترجمة له.
(٣) المصدر السابق، ص١٠٢.

الخواص: «الصادق لا تراه إلا في فرض يُؤدّيه أو فضل يعمل فيه»، وقال الجنيد: «حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب»...، وقال يوسف بن أسباط[1]: «لأن أبيتُ ليلة أعاملُ الله بالصدق أحبُ إليّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله»»[2].

٨- ويستشهد في معرض بيانه لفضل (الذكر) وقيمته بما أُثر عن الحسن البصري، رحمه الله، أنه قال: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق»[3].

ويستمد حكمه بأن حياة القلوب إنما تكون بدوام ذكر الله وترك الذنوب والمعاصي من قول عبد الله بن المبارك، رحمه الله:

«رأيتُ الذنوب تُميتُ القلوب ... وقد يُورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانها»[4]

٩- ويدعم بأقوالهم ما ذهب إليه في الضابط الثالث من ضرورة (الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما)، فيقول: «قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد، رحمه الله: «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بأصول الكتاب والسنة»...، وقال أبو حفص، رحمه الله: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب

---

(١) يوسف بن أسباط الشيباني، الزاهد الورع، له مواعظ وحكم، يروي عن سفيان الثوري وغيره، وقد وثقه ابن معين. انظر: طبقات الصوفية، ص٣٦؛ وسير أعلام النبلاء، ٩/١٦٩-١٧١.

(٢) مدارج السالكين، ٢/٢٠٨-٢١٢.

(٣) المصدر السابق، ٢/٣١٧.

(٤) المصدر السابق، ٣/١٩٧.

والسنة، و لم يتهم خواطره فلا يُعدُّ في ديوان الرجال»، وقال أبو سليمان الداراني، رحمه الله: «ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبله منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة»، وقال أبو يزيد: «لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»[1].

١٠- ويستشهد بأقوالهم في الضابط الرابع من ضرورة (متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به)، فيقول: «قال الجنيد بن محمد، رحمه الله: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتّبع سنته ولزم طريقته، فإن طُرُق الخيرات كلها مفتوحة عليه»، وقال أحمد بن أبي الحواري، رحمه الله: «من عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله». وقال ابن عطاء: «من ألزم نفسه آداب السنة نَوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه»[2].

١١- كما يستشهد في الضابط الخامس من ضرورة (تعلم العلم الشرعي) بما نُقل عن أبي عمرو بن نجيد أنه قال: «كل حال لا يكون نتيجة علم، فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه»[3].

---

(١) المصدر السابق، ٣٤٨/٢؛ وانظر: إغاثة اللهفان، ص١٣٣.
(٢) مدارج السالكين، ٣٤٩/٢.
(٣) المصدر السابق، ٣٥٠/٢.

المبحث الخامس: الشيخ أبو إسماعيل الهروي[1]

الشيخ أبو إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ، شيخ خراسان في عصره، ومن كبار الحنابلة، كان بارعاً في اللغة، حافظاً للحديث، عارفاً بالتاريخ والأنساب، مظهراً للسنة داعياً إليها، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فكان يَدخل على الأمراء والجبابرة لذلك ولا يُبالي. كان عصره بداية الاصطدام القوي بين الحنابلة والأشاعرة، وكان سيفاً مسلولاً على المتكلمين، ولذا ألف كتابه (ذم الكلام وأهله). ولقوة اعتقاده بسلامة مذهب الحنابلة تحمَّل في سبيله الكثير من المشاق، فامتُحن وأُوذي. يقول، رحمه الله: «عُرِضْتُ على السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك، ولكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت»[2].

ومن كتبه: (الفاروق في الصفات)، و(كتاب الأربعين) في التوحيد، و(الأربعين) في السنة، و(منازل السائرين) في السلوك والتصوف، و(سيرة الإمام أحمد بن حنبل).

---

(١) راجع ترجمته في كل من: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/٥٠٣-٥١٨ وابن رجب الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ١/٥٠-٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء، ١٨/٥٠٩.

انتقل من ذم الكلام بوصفه مجال علق به غبار من آثار الثقافات الدخيلة إلى مجال التصوف عند المتأخرين، الذي لم يخل هو الآخر من صبغة هذه الثقافات. ولذا انتُقد من قِبل بعض أعلام المنهج السلفي كابن تيمية والذهبي[1] وابن القيم -كما سيأتي- وغيرهم[2].

قَسَّمَ الهروي كتابه (منازل السائرين) إلى عشرة أقسام يَتدرَّج فيها السائر إلى الله عز وجل، وهي أقسام: البدايات، والأبواب، والمعاملات، والأخلاق، والأصول، والأدوية، والأحوال، والولايات، والحقائق، والنهايات. وجعل لكل قسم عشر منازل، وبذلك يبلغ عدد منازل السائرين إلى الله تعالى مائة منزلة.

وقد استشهد الهروي في كتابه هذا بالكثير من الآيات القرآنية محاولاً إيجاد الصلة بينها ومقامات الصوفية وأحوالهم، وكأنَّه يتَّجهُ بهذا المنهج إلى الجمع بين إثبات إخلاصه لطريقة السلف والبرهنة على صدق نظريات بعض متأخري الصوفية ورجحانها.

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، أبو عبد الله، الإمام الحافظ المؤرخ، شيخ الجرح والتعديل، وصاحب التصانيف الجمة الحسنة، توفي سنة ٧٤٨هـ. انظر: شذرات الذهب، ١٥٣/٦؛ وابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤٢٦/٣-٤٢٧.

(٢) حاول الدكتور مصطفى حلمي أن يبحث في سبب اختيار أبي إسماعيل الهروي لطريق التصوف الذي كان عليه كثير من الصوفية المتأخرين بدلاً من الالتزام بمنهج الزهد الذي كان عليه أرباب السلوك الأوائل. راجع كتابه: التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث (الإسكندرية: دار الدعوة) ص٦-٨.

ولما كان طريق المتصوفة المتأخرين لم يخل من شطحات في الفكر أو في السلوك أو فيهما معاً، فقد كان لغيرهم مواقف منهم يجملها ابن القيم في ثلاث مواقف[1]:

أحدها: موقف من حجبوا بشطحات القوم عن محاسنهم ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقاً.

ويرى ابن القيم خطأ أصحاب هذا الموقف، فيقول: «وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط تُرك جملة وأُهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معالمها»[2].

الثاني: موقف الذين حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم.

وهؤلاء -في نظر ابن القيم- أيضاً مُعْتَدون مُفرِّطون.

الثالث: موقف أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يُقبل، وردوا ما يُرد.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ٢/٣٠.

(٢) المصدر السابق.

وقد وقف ابن القيم من أبي إسماعيل الهروي -وغيره من المتصوفة- الموقف الثالث، وهو موقف العدل والإنصاف، فاستفاد كثيراً من كتابه (منازل السائرين) في تحديد منازل العبودية وقيم السلوك في السير إلى الله عز وجل، فجاء كتابه (مدارج السالكين) شرحاً ممتعاً وافياً وسهلاً ميسراً لكتاب (المنازل)، حاول فيه ابن القيم إبراز ما فيه من حق وخير وتأكيدهما وزيادتهما بياناً وإيضاحاً، وتقويم ما فيه من شطحات، وتهذيب ما فيه من هنَّات، فكان يعرض ما تضمنه من أحكام وأحوال وأقوال على الكتاب والسنة، فيقبل ما وافقهما ويرد ما خالفهما.

والمتفحص لكتاب (المدارج) يجد أن ابن القيم قد استأنس بما جاء من حق في كتاب (المنازل)، ووافق الهروي على كثير مما قرره فيه، وأنه كان بمثابة الملهم له في كثير مما أتى به من مباحث وقضايا ومسائل في كتابه (المدارج)، حيث كان ينطلق -مستطرداً- من بعض أفكار الهروي، فيأتي بالكثير من التفصيلات العلمية، والخاطرات الدقيقة، وقواعد السلوك المهمة، يقدمها للسالكين لينهلوا منها، فيهتدوا بها إلى الحق وسبل الرشاد.

وقد أثنى ابن القيم على الهروي وبيَّن رأيه فيه، فقال: «وصاحب المنازل، رحمه الله، كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضاداً للجهمية من كل وجه، وله كتاب (الفاروق) استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها، ولم يُسبق إلى مثله، وكتاب (ذم الكلام وأهله) طريقته فيه أحسن

طريقة، وكتاب لطيف في أصول الدين، يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقررها، وله مع الجهمية المقامات المشهودة، وسعوا بقتله إلى السلطان مراراً عديدة والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم على عادة بَهْت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير ما دل عليه الكتاب والسنة.

ولكنه، رحمه الله، كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات، فإنه لا يقدم على الفناء شيئاً، ويراه الغاية التي يُشَمِّر إليها السالكون، والعَلَم الذي يَؤمه السائرون، واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع، وعَظُم موقعه عنده، واتسعت إشارته إليه، وتَنوَّعت به الطرق الموصلة إليه علماً وحالاً وذوقاً، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية، بادياً على صفحات كلامه، وزان تعطيل الجهمية لما اقتضته أصولهم من نفي الصفات.

ولما اجتمع التعطيلان لمن اجتمعا له -من السالكين- تَولَّد منهما القول بوحدة الوجود، المتضمن لإنكار الصانع وصفاته وعبوديته، وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف في إثبات الصفات، فأشرف من عقبة الفناء على وادي الاتحاد بأرض الحلول فلم يسلك فيها. ولوقوفه على عقبته، وإشرافه على تلك الربوع الخراب، ودعوة الخلق إلى الوقوف على تلك العقبة، أقسمت الاتحادية بالله جهد أيمانهم إنه لمعهم ومنهم، وحاشاه.

وتولى شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة، وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الفِرَق (العفيف التلمساني)[1]، ونـزل الجمع الذي يشير إليه صاحب المنازل على جمع الوجود، وهو لم يَرِد به -حيث ذكره- إلا جمع الشهود، ولكن الألفاظ مجملة وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد، ولساناً فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠)»[2].

ولكن ثناء ابن القيم على الهروي وتقديره له واستفادته منه الفوائد الكثيرة في موضوع بحثنا هذا لم تمنعه من نقده له، ومعارضته إياه في الكثير من المقامات والأحوال وتفاصيل مسائلها.

ويتأرجح هذا النقد وتلك المعارضة بين اللين والشدة بحسب قُرب أو بُعد كلام الهروي من الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال ومواقف سلف الأمة، مع الحرص على الالتزام بالأدب والتواضع والعدل والإنصاف في مخالفته للهروي ورده عليه، والتماس الأعذار له، وحمل كلامه على أحسن محامله، لِما عَرَفهُ عنه ولَمسهُ فيه من صحة الإيمان

---

(١) أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني، الشاعر المتقن، والمتفنن في علوم النحو والأدب والفقه والأصول، نُسب إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، توفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: البداية والنهاية، ١٣/٣٤٥.

(٢) مدارج السالكين، ١/٢٠٤-٢٠٥؛ وراجع ما جاء في ٢/٦٥-٦٦؛ وفي ٣/٣٨٤.

وقوة الإخلاص وحب الحق والذب عن السنة. ولذا كثيراً مـــا نطـــالع في كتابه (المدارج) أمثال قوله عنه: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحـــب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نُبيِّن ما فيه»[1]، وقوله: «هذا ونحـــوه مـــن الشطَحات التي تُرجى مغفراها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد. و لم تُضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ»[2]، وقوله أيضاً: «ولولا أن حق الحق أوجب من حق الخلق لكان في الإمساك[3] فسحة ومُتسع»[4]، وقوله كذلك: «والله يُشكر لشيخ الإسلام سعيه ويُعلي درجته ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وَجدَ مريدهُ سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل. كيف وقد نفعه الله بكلامه؟، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناماً؟»[5].

ومن المســـائل الكثيرة التي عارض فيها ابن القيم الهروي وانتقده فيهـــا - على سبيل المثال لا الحصر- ما يلي:

---

(١) مدارج السالكين، ٢/٢٨.

(٢) المصدر السابق، ٢/٣٠.

(٣) يعني: في الإمساك عن الاعتراض والنقد.

(٤) المصدر السابق، ٢/٣٣.

(٥) المصدر السابق، ٢/٣٩.

١ - أن الهروي عَدَّ من منازل السائرين منـــزلة (الحزن)[1]، فخالفه ابن القيم في ذلك، واستدرك عليه بقوله: «ليس من المنازل المطلوبة، ولا المأمور بنـــزولها، وإن كان لابد للسالك من نـــزولها. و لم يأتِ (الحزن) في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً.

فالمنهـــي عنـــه كقـــولـــه تعـــالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ (آل عمران:١٣٩)، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (النحـــل:١٢٧)، في غير موضع، وقولـــه: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبـــة:٤٠). والمنفي كقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٣٨). وسر ذلك: أن (الحزن) موقف غير مُسيِّر، ولا مصلحة فيه للقلب. وأحب شـــيء إلى الشيطان: أن يُحزِّن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (المجادلة:١٠)، ونهى النبي ﷺ الثلاثة أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه[2]. فالحزن ليس بمطلوب ولا مقصود ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه الـــنبي ﷺ،

---

(١) راجع: منازل السائرين، تحقيق وتعليق: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، ط ١ (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب (الاستئذان)، البـــاب (٤٧)، الحـــديث رقـــم (٦٢٩٠) ١١/٨٢- ٨٣؛ وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (السلام)، باب (تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه) ١٤/١٦٨.

فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ»[1]، فهو قرين الهم. والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب إن كان لِما يُستقبل أورثه الهم، وإن كان لما مضى أورثه الحزن، وكلاهما مضعفٌ للقلب عن السير، مُفتِّرٌ للعزم. ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ (فاطر: ٣٤)، فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما تصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم...

وأما الخبر المروي (إن الله يحب كل قلب حزين) فلا يُعرف إسناده، ولا من رواه، ولا تُعلم صحته. وعلى تقدير صحته، فالحزن مصيبة من المصائب التي يَبتلي الله بها عبدَه، فإذا ابتُلي به العبد فصبر عليه أحب صبره على بلائه...

وأجمع أرباب السلوك على أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحِيري[2] فإنه قال: (الحزن بكل وجه فضيلة وزيادة للمؤمن ما لم يكن بسبب معصية، لأنه إن لم يُوجب تخصيصاً فإنه يوجب تمحيصاً). فيقال: لا ريب أنه محنة وبلاء من الله، بمنزلة المرض والهم والغم، وأما أنه من منازل الطريق فلا، والله سبحانه أعلم»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب (الدعوات)، الباب (٤٠)، الحديث رقم (٦٣٦٩) ١١/١٧٨.

(٢) سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري، أبو عثمان، أصله من الري، صحب يحيى بن معاذ الرازي وشاه بن شجاع الكرماني، رحل إلى نيسابور ونشر فيها طريقة التصوف، توفي سنة ٢٩٨هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٧٠.

(٣) مدارج السالكين، ١/٣٨١ - ٣٨٣.

١- ولما جعل الهروي منـزلة (التهذيب والتصفية) على ثلاث درجات، وقال في الدرجة الثانية منها أنها: «تهذيب الحال، وهو أن لا يجنح الحال إلى علم»[1]، اعترض عليه ابن القيم، فقال معقباً: «أما جنوح الحال إلى العلم فهو نوعان: ممدوح ومذموم. فالممدوح: التفاته إليه، وإصغاؤه إلى ما يأمر به، وتحكيمه عليه. فمتى لم يجنح إليه هذا الجنوح كان حالاً مذموماً ناقصاً مبعداً عن الله، فإن كل حال لا يصحبه علم: يُخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان. وهذا القدر هو الذي أفسد على أرباب الأحوال أحوالهم، وعلى أهل الثغور ثغورهم، وشرَّدهم عن الله كل مشرد، وطردهم عنه كل مطرد، حيث لم يَحكّموا عليه العلم، وأعرضوا عنه صفحاً حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان وشرائع الإسلام...

والبلية التي عرضت لهؤلاء: أن أحكام العلم تتعلق بالعلم وتدعوا إليه، وأحكام الحال تتعلق بالكشف. وصاحب الحال تَرِدُ عليه أمور ليست في طور العلم، فإن أقام عليها ميزان العلم ومعياره، تعارض عنده العلم والحال، فلم يجد بُدّاً من الحكم على أحدهما بالإبطال. فمن حصلت له أحوال الكشف ثم جنح إلى أحكام العلم، فقد رجع القهقرى وتأخر في سيره إلى وراء.

فتأمل هذا الوارد وهذه الشبهة التي هي سمٌّ ناقعٌ تخرج صاحبها من المعرفة والدين كإخراج الشعرة من العجين. واعلم أن المعرفة الصحيحة هي روح العلم. والحال الصحيح هو روح العمل المستقيم، فكل حال لا يكون

---

(١) منازل السائرين، ص٧٦.

نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم، فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة. ولا يُنكر أن يكون لهذه الروح أحوال، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها، فمتى عارض الحال حكم من أحكام العلم فذلك الحال إما فاسد وإما ناقص ولا يكون مستقيماً أبداً. فالعلم الصحيح والعمل المستقيم هما ميزان المعرفة الصحيحة والحال الصحيح، وهما كالبدنين لروحيهما.

فأحسن ما يُحمل عليه قوله (أن لا يجنح الحال إلى العلم): أن العلم يدعو إلى التفرقة دائماً، والحال يدعو إلى الجمعية، والقلب بين هذين الداعيين، فهو يُجيب هذا مرة وهذا مرة. فتهذيب الحال وتصفيته: أن يجيب داعي الحال لا داعي العلم. ولا يلزم من هذا إعراضه عن العلم وعدم تحكيمه والتسليم له، بل هو مُتعبّد بالعلم مُحكِّم له مستسلم له غير مجيب لداعيه من التفرقة، بل هو مجيبٌ لداعي الحال والجمعية، آخذٌ من العلم ما يصحح له حاله وجمعيته، غير مستغرق فيه استغراق من هو مطرح همته وغاية مقصده، لا مطلوب له سواه، ولا مراد له إلا إياه. فالعلم عنده آلة ووسيلة وطريق توصله إلى مقصده ومطلوبه، فهو كالدليل بين يديه يدعوه إلى الطريق ويدله عليها، فهو يجيب داعيه للدلالة ومعرفة الطريق وما في قلبه من ملاحظة مقصده ومطلبه من سيره وسفره وباعث همته على الخروج من أوطانه ومَرْباه ومن بين أصحابه وخلطائه، الحامل له على الاغتراب والتفرد في طريق الطلب: هو المسير له والمحرك والباعث، فلا يجنح عن داعيه إلى اشتغاله بجزئيات أحوال الدليل وما هو خارج عن دلالته على طريقه.

فهذا مقصد شيخ الإسلام – إن شاء الله تعالى – لا الوجه الأول، والله سبحانه وتعالى أعلم»[1].

٢- ولمّا قال الهروي في حديثه عن منزلة (الشكر): «وهو أيضاً من سُبُل العامة»[2]، عَقّب عليه ابن القيم بقوله: «يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل، إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السُبُل. بل الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه، عليهم السلام أجمعين، أخص خلقه وأقربهم إليه. ويا عجباً!، أي مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة، والرضى، والتوكل وغيرها؟ فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها. وتالله ليس لخواص أولياء الله وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى»[3].

٣- ولمّا صَدَّر الهروي منزلة (الانبساط) بقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ (الأعراف:١٥٥)[4]، اعترض عليه ابن القيم، فقال: «وقد غلط صاحب المنازل حيث صَدَّر هذه المنزلة بقوله تعالى – حاكياً عن كليمه موسى عليه الصلاة والسلام –: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾، وكأنه فهم

(١) مدارج السالكين، ٢/٧٦ – ٧٧.
(٢) منازل السائرين، ص٩١.
(٣) مدارج السالكين، ٢/١٩٠.
(٤) راجع: منازل السائرين، ص١٠٣.

من هذا الخطاب انبساطاً بين موسى وبين الله تعالى حمله على أن قال: (إن هي إلا فتنتك)... وكل هذا وهم، وفهم خلاف المقصود، فالفتنة ههنا هي الامتحان والاختبار، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ (الأنعام:٥٣)، وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾(الجن:١٦-١٧)... والمعنى: أن هذه الفتنة اختبار منك لعبدك وامتحان تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، فأي تَعلُّق لهذا بالانبساط؟ وهل هذا إلا توحيد وشهود للحكمة وسؤال للعصمة والمغفرة؟ وليس للعارف في هذه المنزلة حظ مع الله، وإنما هي متعلقة بالخلق»[1].

٤- ولمّا قال الهروي في حديثه عن منزلة (الذكر): «قال الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف:٢٤)، يعني: إذا أنسيت، ونسيت نفسك في ذكرك، ثم نسيت ذكرك في ذكرك، ثم نسيت في ذكر الحق إياك كل ذكر»[2]، عارضه ابن القيم في الاستدلال بهذه الآية وتفسيرها، فقال: «ليته -قدَّس الله روحه- لم يقل[3]، فلا والله ما عنى الله هذا المعنى، ولا هو مراد الآية، ولا تفسيرها عند أحد من السلف ولا من الخلف. وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا حتى

---

(١) مدارج السالكين، ٢/٢٦٨-٢٦٩.
(٢) منازل السائرين، ص١١٤.
(٣) يقصد: ليته لم يقل كلامه السابق في معنى الآية الكريمة.

تقول: إن شاء الله. فإذا نسيت أن تقولها فقلها متى ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جَوَّزه ابن عباس وتأوَّل عليه الآية، وهو الصواب...، والذي أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غداً، ولم يقل (إن شاء الله)، فَتَلَبَّث الوحي أياماً، ثم نزلت هذه الآية. قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: معناه إذا نسيت الاستثناء، ثم ذكرت فاستثن»[1].

٥- ولما جعل الهروي (الهيمان) في أعلى المنازل[2]، خَطَّأه ابن القيم وعارضه في ذلك، فقال: «وليس ذلك من مقامات السير، ولا منازل الطريق المقصودة بالنزول فيها للمسافرين، خلافاً لصاحب المنازل، حيث عَدَّ ذلك من أعلى المنازل وغاياتها، وعَبَّر عنه بمنزلة (الهيمان)، وليس له ذكر في القرآن ولا في السنة، ولا في لسان سلف القوم.

وقد تكلَّف له صاحب المنازل الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف:١٤٣)، وما أبعد الآية من استشهاده، وكأنه ظن أن موسى ذهب عن تماسكه لما ورد عليه في حالة الخطاب والتكليم الإلهي، فأورثه ذلك هيماناً صُعق منه. وليس كما ظنه، وإنما صُعق موسى عند تجلي الرب تعالى للجبل واضمحلاله وتدكدكه من تجلي الرب تعالى»[3].

---

(١) مدارج السالكين، ٢/٣٢٣-٣٢٤.
(٢) راجع: منازل السائرين، ص١٤٦.
(٣) مدارج السالكين، ٣/٦٢.

المبحث السادس: شيخ الإسلام ابن تيمية

شيخ الإسلام ابن تيمية، هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، العالم الرباني، والمجاهد والمجدد الإسلامي في القرن السابع الهجري، وأبرز أعلام السلفية في مرحلتها الثانية[1]، انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي وهو ابن إحدى وعشرين سنة، بلغ الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والأناة، والتواضع والحلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، وحسن التوجه والقصد. فاق الأقران وحاز قصب السبق في مختلف العلوم، ولاسيما العقيدة والسلوك والتفسير، والحديث وأسانيده ونقد الرجال، والفقه وأصوله، وعلوم العربية. دعا إلى التوحيد الخالص القائم على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وحارب التدين الزائف القائم على الاعتقاد بالحلول والاتحاد لدى الصوفية الوجودية، كما حارب البدع والشرك والخرافات واتخاذ قبور الأولياء والصالحين أماكن مقدسة تزار وتُشد إليها الرحال. وبث روح التجديد في الفكر الإسلامي بفتح باب الاجتهاد ومحاربة الجمود والتعصب المذهبي، وشن غارات قوية على النصيرية والباطنية بالشام مبيناً خطورة مذهبهم، وناقش عقائد الفرق المختلفة كالخوارج والشيعة والمرجئة

---

(١) راجع: كتابي: المنهج السلفي: تعريفه، تاريخه، مجالاته، قواعده، خصائصه، ط ٢ (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) في الصفحات: ٧٢ – ٩٦.

والقدرية والجهمية نقاشاً قوياً مبيناً مواطن الضعف والخلل فيها، ودخل في مناظرات طويلة مع الفلاسفة والمتكلمين، وانتقد الفلسفة اليونانية ونقض المنطق الأرسطي.

وقد لقي، رحمه الله، العنت وتكبَّد المشاق الكثيرة بسبب مواقفه تلك من الفرق المختلفة وخصومته لعلم الكلام وطعونه في الصوفية ومشائخها، وكذلك بسبب آرائه الجريئة التي ساقته إليها اجتهاداته المُدعَّمة بالأدلة، والتي سَفَّه بها بعض الآراء الفقهية، حيث اضطهد من قِبَل خصومه، وأُوذي وسُجن مرات عديدة في القاهرة والأسكندرية، ودمشق، ولكنه ظل صابراً محتسباً لا يُبالي بما يلقى من الأذى في سبيل دعوته إلى أن وافاه الأجل وهو محبوس بقلعة دمشق في ليلة الاثنين؛ العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، وقد خَلَّف ثروة فكرية وفقهية عظيمة تمثَّلت في حوالي خمسمائة مؤلف، أشغلت الباحثين من بعده في دراستها وتحقيقها وتحليلها وترجمتها.

وقد تقدم معنا في التمهيد أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان أبرز العلماء الذين تتلمذ ابن القيم على أيديهم، حيث لازمه ستة عشر عاماً(١)، فكان لهذه الملازمة والصحبة الطويلة الأثر الإيجابي البالغ في تكوينه العلمي

---

(١) فقد حدد المؤرخون تاريخ لقاء ابن القيم بشيخه ابن تيمية وملازمته له وأخذه عنه بعودة ابن تيمية إلى دمشق قادماً من الديار المصرية عام ٧١٢هـ، وحتى وفاته عام ٧٢٨هـ. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ٢١/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٦/١٤.

الشرعي، وفي تصحيح مساره العقدي[1]، وتوجيه فكره، وتحديد منهجه وسلوكه، حيث نهل من علومه ومعارفه، واتبع مذهبه، وهذّب كتبه، وانتصر لغالب أقواله وآرائه[2]، وشاركه في جهاده الفكري العقدي واجتهاده الفقهي، «حتى صار أبرع تلاميذه وألمعهم نجماً وأجلاهم اسماً، فلا يكاد يُذكر ابن تيمية إلا ويُذكر معه تلميذه ابن القيم، وسرى نور هذين العالمين في آفاق المعمورة بسعة العلم وأصالة الفكر والتجديد في دعوة الناس إلى صراط الله المستقيم»[3].

وقد حصل لابن القيم بسبب مشاركته لشيخه ابن تيمية في جهاده واجتهاده، وتمسكه بمذهبه، ومناصرته له في ذات الله الكثير من الأذى، فقد امتُحن وأُوذي وحُبس بقلعة دمشق بعد ما أُهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، ولم يُفرج عنه إلا بعد وفاة شيخه[4].

ويبين لنا ابن القيم تأثير ما رآه من شيخه في نفسه، فيُسجل طرفاً من سجاياه وفضائله التي شاهدها فيه وعرفها عنه، وشيئاً من وصاياه وتوجيهاته له.

---

(١) راجع ما قاله ابن القيم بهذا الشأن في نونيته المشهورة والمعروفة بالكافية الشافية، ط ١ (الرياض: دار ابن خزيمة للنشر، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ص١٨٠-١٨١.
(٢) انظر: ابن حجر،الدرر الكامنة، ٢١/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٦/١٤.
(٣) الشيخ بكر أبو زيد، التقريب لفقه ابن القيم، ١٠٩/١.
(٤) انظر في هذا كلاً من: الدرر الكامنة، ٢١/٤؛ ابن رجب الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ٤٤٨/٢.

أما السجايا والفضائل، فمنها:

١- تواضع شيخ الإسلام ابن تيمية، وإخلاصه في عبادة الله، وحرصه على البعد عن الرياء، وإخفاء أحواله مع الله عن الخلق، ليصح له سيره إلى الله. وفي هذا يقول ابن القيم: «ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قَدَّس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيراً: (مالي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء)، وكان كثيراً ما يتمثَّل بهذا البيت:

أنا المُكْدي[1] وابن المُكْدي ... وهكذا كان أبي وجَدّي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: (والله إني إلى الآن أُجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمتُ بَعْدُ إسلاماً جيداً)، وبَعثَ إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

(أنا الفقير إلى رب البريَّاتِ ... أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات))»[2]

إلى آخر الأبيات.

٢- حرصه على ذكر الله ومداومته عليه، وفي هذا يقول ابن القيم: «ومن تجريبات السالكين التي جرَّبوها فألْفوها صحيحة: أن من أدمن

---

(١) المكدي: أي قليل العطاء، الفقير المسكين. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (كدا).
(٢) مدارج السالكين، ٣٩٥/١ - ٣٩٦.

(يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت) أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – شديد اللهج بها جداً. وقال لي يوماً: (لهذين الاسمين – وهما الحي القيوم – تأثيرٌ عظيمٌ في حياة القلب)، وكان يُشير إلى أنهما الاسم الأعظم، وسمعته يقول: (من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، حصلت له حياة القلب، ولم يمت قلبه)»[1].

٣- إحسانه إلى من أساء إليه، ومعاملته بضد ما عامله به، وفي هذا يقول ابن القيم: «ما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه –، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: (وَدِدتُ أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه). وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم. وجئتُ يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتَنكّرَ لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فَعزَّاهم، وقال: (إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه)، ونحو هذا من الكلام، فَسُرّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[2].

---

(١) المصدر السابق، ١/٣٣٩.
(٢) المصدر السابق، ٢/٢٦٢.

٤- قوة فراسته رحمه الله، وفي هذا يقول ابن القيم: «لقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، أموراً عجيبة، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً». وبعد ذكره لبعض هذه الوقائع ختم كلامه بقوله: «وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه و لم ينطق به لساني، وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، و لم يُعين أوقاتها، وقد رأيتُ بعضها وأنا أنتظر بقيتها. وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته»[1].

وأما الوصايا والتوجيهات، فمنها:

١- توجيهه له بدفع الشبهات عن قلبه، وفي هذا يقول ابن القيم: «قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية، رضي الله عنه، وقد جَعلْتُ أُورد عليه إيراداً بعد إيراد-: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فَيتشرّبها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربتَ قلبك كل شبهة تمر عليها، صار مَقراً للشبهات)، فما أعلم أني انتفعتُ بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك»[2].

---

(١) المصدر السابق، ٢/٣٦٦-٣٦٧.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص١٤٤.

٢- توجيهه له بترك التوسع في المباح، وفي هذا يقول ابن القيم: «قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – في شيء من المباح: (هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة)...، فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام»[1].

٣- وتوجيهه له في ترويض نفسه على ما يمر بها من عوارض ومحن، وفي هذا يقول ابن القيم: «قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، مرة: (العوارض والمحن هي كالحر والبرد، فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما، ولم يغتم لذلك ولم يحزن)»[2].

ولقد تأثر ابن القيم كثيراً بأقوال شيخه وأحواله في منازل العبودية لله عز وجل، فكانت بحقٍ مصدراً مهماً من مصادره في تقرير هذه المنازل ومسائلها وقيمها.

ومما يؤكد هذا التأثر إكثاره، رحمه الله، من الاستشهاد بهذه الأقوال والأحوال والاستئناس بها. ومن ذلك على سبيل المثال ما يلي:

١- استشهاده بقول شيخه في معرض بيانه لحقيقة الخوف المحمود، حيث يقول: «والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه ومحارم الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك خِيفَ منه اليأس والقنوط...، سمعت شيخ

---

(١) مدارج السالكين، ٢/٢٠.

(٢) المصدر السابق، ٣/٢٨٩.

الإسلام ابن تيمية – قَدَّسَ الله روحه – يقول: (الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله)» [1].

٢- استئناسه بقول شيخه في تعريف (الزهد) وبيان حقيقته، حيث يقول: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قَدَّسَ الله روحه – يقول: (الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة)، وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها» [2].

٣- استشهاده – في معرض حديثه عن منزلة (المراقبة) – بقول لشيخه في سرور القلب بالله وفرحه بعبادته، حيث يقول: «ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل، وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئاً منه فليتهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة، ومن لم يذقها فليرجع ويقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان...، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قَدَّسَ الله روحه – يقول: (إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور)، يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول» [3].

---

(١) المصدر السابق، ١/٣٨٨.
(٢) المصدر السابق، ٢/١٠.
(٣) المصدر السابق، ٢/٥١.

٤- ويُورد في بيان حقيقة (الاستقامة) المـــذكورة في قولـــه تعـــالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ (الجن:١٦) ما سمعه من شيخ الإسلام أنه كان يقول: «استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة»[١].

٥- وفي تقريره للأمر الثاني الذي يستقيم به قلب الســـالك، وهـــو: تعظيم الأمر والنهي، يستشهد بما سمعه عن شيخه في ذلك، حيث يقـــول: «... وما أحسن ما قال شيـــخ الإســـلام في تعظيم الأمر والنهي، وهـــو: (ألا يُعارضا بترخّص جافٍ، ولا يعارضا بتشديدٍ غالٍ، ولا يُحملا على علة توهن الانقياد)» [٢].

٦- ويقرر في بيانه لفضائل الصبر أنه يورث صاحبه درجة الإمامة في الدين، استناداً إلى ما سمعه من شيخه أنه كان يقول: «بالصبر واليقين تُنـــال الإمامة في الدين»[٣].

٧- وفي بيانه – في منـــزلة (الأدب) – لصور الأدب مع الله سبحانه في الصلاة يستشهـــد بعـــدة أقـــوال سمعها من شيخ الإســـلام، حيـــث يقول: «سمعـــت شيـــخ الإســـلام ابن تيمية – رحمـــه الله – يقـــول: (أمَرَ الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينـــة، فقـــال

---

(١) المصدر السابق، ٢/٧٩.
(٢) الوابل الصيب، ص١٣.
(٣) مدارج السالكين، ٢/١١٧.

تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف:٣١)، فعلّق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة)...، ومن الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصره إلى السماء[1]، فسمعت شيخ الإسلام، قدس الله روحه، يقول: «هذا من كمال أدب الصلاة أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلى الأرض، ولا يرفع بصره إلى فوق»..، وسمعته يقول – في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود[2]-: «إن القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله أن لا يقرأ في هاتين الحالتين، ويكون حال القيام والانتصاب أولى به»[3].

---

(١) فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلاتِهِمْ؟، فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى، قَالَ: لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ». أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب (الأذان)، الباب (٩٢)، الحديث رقم (٧٥٠)، ٢/٢٣٣؛ وأخرج نحوه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، في كتاب (الصلاة)، باب (النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة) ٤/١٥٢.

(٢) فقد أخرج مسلم عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «ألا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا» الحديث، كما روى عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: « نَهَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ »، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الصلاة)، باب (النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود) ٤/١٩٦، ١٩٨.

(٣) مدارج السالكين، ٢/٢٩٠.

٨- ويقرر في بيانه لفوائد الذكر: أن الذكر يورث حياة القلب، ويستشهد على ذلك بما سمعه من شيخ الإسلام أنه كان يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟»[١].

كما يقرر أن المداومة على الذكر تورث القوة للذاكر، ويستشهد على ذلك بأحوال شيخه من حيث القوة في المشي والكلام والكتابة والإقدام بسبب مداومته على ذكر الله، حيث يقول: «إن الذكر يُعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يطق فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في مشيته وكلامه وإقدامه وكتابته أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً»[٢].

٩- ويستشهد في تقريره للضابط الثاني من ضوابط قيم السلوك - وهو العبودية الخالصة لله تعالى - بقول شيخه: «من أراد السعادة الأبدية فليزم عتبة العبودية»[٣].

١٠- كما يستشهد في معرض حديثه عن الضابط الخامس – وهو تعلم العلم الشرعي – بقول شيخه: «من فارق الدليل ضَلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول»[٤].

---

(١) الوابل الصيب، ص٨٥.
(٢) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٣) مدارج السالكين، ٣٢٦/١.
(٤) مفتاح دار السعادة، ص٨٥.

الخاتمة

أحمد الله عز وجل وأشكره وأثني عليه الخير كله على ما يسر وأعان سبحانه على إتمام هذا البحث. وفي ختامه أُبيِّن - بإيجاز فيما يلي - أبرز النتائج العلمية التي توصلت إليها فيه:

١- إن السلوك مع الله عند ابن القيم هو: سلوك الطريق إلى الله عز وجل، وذلك بتهذيب النفوس وتزكيتها وتطهير القلوب ومعالجة أمراضها، لتسعد بسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه، فإن المرء مع من أحب.

وإن المراد بقيم السلوك مع الله : الصفات السلوكية الذاتية الخَيِّرة التي يقتضيها الشرع والعقل والفطرة في صلة العبد بربه، وعبادته إياه، وسلوك الطريق إليه سبحانه.

٢- إن ترتيب منازل السير إلى الله ليس باعتبار أن السالك يقطع المنزلة ويفارقها وينتقل منها إلى الثانية بعدها كمنازل السير الحسي، وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له، فبعض المنازل متوقف على بعض ومستصحب لبعضها، ومنها ما يندرج فيها جميع المنازل.

٣- إن التوبة مبـــدأ مقامات السالكين، وأول مراحل الطريق إلى الله، بل هي المدخل المفضي إلى ذلك الطريق، والقرين المتنقل في مدارجـــه مـــن البداية إلى النهاية، وهي رجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى مـــا هـــو محمود فيه، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان.

٤- إن التوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها: الرجـــوع إلى الله بـــسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده موصلاً إلى رضوانه. ومنتهاها: الرجـــوع إلى الله في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته.

٥- إن النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها.

٦- إن الإنابة: الرجوع إلى الله ومحبته، وانـــصراف دواعـــي القلـــب وجواذبه إليه، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعتـــه بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ .

٧- وتنقسم إلى قسمين:

الأول: إنابة لربوبيته سبحانه، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

الثاني: إنابة لإلهيته سبحانه إنابة عبودية ومحبة، وهي إنابة أوليائه. وتتضمن أربعة أمور لا يستحق السالك اسم «المنيب» إلا بها، وهي: محبته سبحانه، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

٨- إن المنيبين إلى الله على ثلاث درجات:

أ- فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر.

ب- ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات. وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله.

ج- ومنهم المنيب إليه بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة فيه، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة.

وإن أعلى أنواع الإنابات وأفضلها: إنابة الروح لخالقها سبحانه.

٩- إن الخوف من أجَلِّ منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهو فرض على كل أحد. وإنه لعامة المؤمنين، والخشية – وهي الخوف المقرون بمعرفة – للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين.

١٠- إنه على قدر العلم والمعرفة بالله، وبحسب القرب منه والمنزلة عنده يكون الخوف والخشية منه سبحانه.

١١- إن الخـــوف شـــرط في تحقق الإيمـــان ولازم من لوازمه، وإنه لا يصلح إلا لله وحده، وينشأ من ثلاثة أمور:

الأول: معرفة السالك بالجناية وقبحها.

الثاني: تصديقه الوعيد، وأن الله رتب على المعصية قبحها.

الثالث: أنه لا يعـــلم لعله يُمنع من التوبة ويُحـــال بينـــه وبينـــها إذا ارتكب الذنب.

١٢- إن القـــدر الواجب من الخـــوف: ما حال بين صاحبه ومحارم الله عز وجل، وهـــو الخوف الصادق المحمود، فإن تجاوز ذلك خيف منـــه اليأس والقنوط. وإن ثمرته: الأمن التام الدائم في الآخرة.

١٣- إن أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها: أن الزهد ترك العبد ما لا ينفع في الآخرة، والورع: تركه ما يخاف ضرره في الآخرة. وأن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، وأن يكون في ثواب المصيبة – إذا أصيب بها- أرغب منه فيها لو لم تصبه.

١٤- إن زهد المُشمِّرين في السير إلى الله نوعان:

النوع الأول: الزهد في الدنيا جملة، وذلك بإخراج الزاهد لها من قلبـــه بالكلية وإن كانت في يده.

النوع الثاني: الزهد في النفس، وهو نوعان أيضاً:

أحدهما: وسيلة وبداية، وهو أن يُميت الزاهد نفسه، فلا يبقى لها عنده من القــدر شيء، فلا يغضب ولا ينتصر ولا ينتقم لها، بل يبيح عرضــها ويجعله في سبيل الله.

والثاني: غاية وكمال، وهو أن يبذلها لله جملة، بحيث لا يستبقي منــها شيئاً، ويزهد فيها زهد المحب في قــدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبــةُ محبوبه به.

١٥- إن الذي يصحح زهد العبد في الدنيا ثلاثة أمور:

الأول: علمه أنها ظل زائل وخيال زائر.

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجَلّ خطراً، وهي دار البقاء.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كُتب له منها، وأن حرصــه عليها لا يجلب له ما لم يُقضَ له منها.

١٦- إن الرجاء: هو الاستبشار بجود الله تبــارك وتعــالى وفــضله والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. والفرق بينه وبين التمني: أن الرجاء يكون مع استفراغ الجهد والطاقة في الإتيان بأسباب الفوز والظفر. والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه.

١٧- إن الرجاء من أجلّ منازل السائرين إلى الله وأعلاها وأشــرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله.

١٨- إن الرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه. ورجاء رجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها، فهو راج لمغفرة الله وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجاء رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

١٩- إن الرجاء يستلزم ثلاثة أمور: محبة ما يرجوه، وخوفه من فواته، وسعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

٢٠- إنه ينبغي على السالك الجمع بين مقامي الخوف والرجاء، وأن يُغلّب الخوف في حال الصحة، ويُغلّب الرجاء في حال دنو الأجل.

٢١- إن للرجاء فوائد كثيرة، منها:

أ- إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه العبد من ربه ويستشرفه.

ب- أن الرجاء يطيب للعبد السير إلى الله ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته.

ج- أنه يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه في دهليزها.

د- أنه يبعثه على مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية وأعلى المقامات.

هـ- أنه مستلزم للخوف، فكل راج خائف.

٢٢- إن المراقبة: هي دوام علم العبد السالك وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه.

٢٣- إن الإخلاص: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، وتصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

٢٤- إن للإخلاص ثلاث آفات هي: رؤية العبد لعمله وملاحظته إياه، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه.

ولذا يُخلّصه من رؤيته لعمله: مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه.

والذي يُخلّصه من طلب العوض على عمله: علمه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة.

والذي يُخلّصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره في عمله، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأنه أضعف وأعجز وأقل من أن يفي بها لله على الوجه الأمثل والأكمل.

٢٥- إن الاستقامة كلمة آخذة بمجامع الدين، وتعني: القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، ووقوع الأفعال والأقوال والأحوال والنيات لله وبالله وعلى أمر الله.

وتكون بأمرين:

الأول: أن تتقدم محبة الله سبحانه عند العبد على جميع المحاب.

الثاني: تعظيم أوامر الله ونواهيه، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي.

٢٦- إن التوكل هو: الاستعانة، ويُمثل مركب السائر إلى الله الذي لا يتأتى له السير إلا به، ذلك أنه حقيقة العبودية، ومن لوازم الإيمان ومقتضياته، فمن لا توكل له لا إيمان له.

٢٧- إن العبد لا يستكمل مقام التوكل إلا بثمانية أمور:

الأول: المعرفة بالله سبحانه وصفاته.

الثاني: إثبات الأسباب والمسببات، والأخذ بالأسباب مع عدم الركون إليها وقطع علاقة القلب بها.

الثالث: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

الرابع: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه.

الخامس: حسن الظن بالله.

السادس: استسلام القلب له سبحانه وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته.

السابع: التفويض، وهو روح التوكل ولبه وحقيقته.

الثامن: الرضا بالقدر، وهو ثمرة التوكل وأعظم فوائده.

٢٨- إن الصبر: هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش. وينقسم إلى: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله. كما ينقسم باعتبار متعلقه إلى: صبر على الأوامر والطاعات، وصبر على المناهي والمخالفات، وصبر على المحن والأقدار والمصائب.

٢٩- وهو واجب بإجماع الأمة، ويُمثل نصف الإيمان، والنصف الآخر يمثله الشكر، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

٣٠- وتتمثل فضائل الصبر في القرآن الكريم في الآتي:

الأمر به، والنهي عن ضده، وإيجابه سبحانه محبته للصابرين، وإيجابه معيته لهم، وإخباره أن الصبر خير لأصحابه، وإيجابه الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، وإيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب، وإطلاق البشرى لهم، وضمان النصر والمدد لهم، والإخبار بأنهم أهل العزائم، والإخبار بأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، والإخبار بأنهم إنما نالوا الفوز بالجنة والنجاة من النار بالصبر، وأن الصبر يورث صاحبه الإمامة في الدين، واقترانه بالإسلام والإيمان واليقين والتقوى والتوكل والشكر والرحمة والعمل الصالح.

كما تتمثل هذه الفضائل في السنة النبوية في الآتي:

اقتران النصر بالصبر، وأن الصبر نبراس ينير معالم الطريق، وتوفيق الله عز وجل الصابرين، وأن الصبر خير عطاء أعطيه المؤمن وأوسعه، وتعريف الإيمان بالصبر والسماحة.

٣١- وتتمثل الأسباب المعينة على الصبر عن المعصية في الآتي:

علم العبد بقبح المعصية ودناءتها، والحياء من الله عز وجل، ومراعاة نعم الله عليه وإحسانه إليه، وخوف الله وخشية عقابه، ومحبته، وشرف نفس العبد وزكاؤها وفضلها وأَنَفتها وحميَّتها أن تفعل ما يحط من قدرها ويُحقِّرها، وقوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها وضررها، وقصر الأمل، ومجانبة الفضول في المطعم والمشرب والملبس والمنام والاجتماع بالناس، وثبات شجرة الإيمان في القلب.

وتتمثل الأسباب المعينة على الصبر على الطاعة في الآتي:

معرفة الأسباب المعينة على الصبر عن المعصية، ومعرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، والإيمان والمحبة.

كما تتمثل أهم الأسباب المعينة على الصبر على المحن والمصائب في الآتي:

شهود جزائها وثوابها، وشهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها، وشهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مُقَدَّرة في أم الكتاب قبل أن يُخلق المبتلى فلابد منها، وشهوده حق الله عليه في تلك البلوى المتمثل في وجوب الصبر، وشهود ترتبها عليه بذنبه، وأن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها

وقَسَمَها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، وأن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، وأن يعلم كذلك أن الله يُربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال.

٣٢- إن الذكر قوت قلوب السائرين، وسلاحهم الذي به يقاتلون قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل بينهم وبين علام الغيوب.

٣٣- وينقسم الذكر إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به. وهو نوعان:

الأول: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر.

الثاني: الخبر عنه سبحانه بأحكام أسمائه وصفاته. وهو حمد، وثناء، ومجد.

القسم الثاني: ذكر أمره سبحانه ونهيه وأحكامه. وهو نوعان أيضاً:

الأول: ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

الثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه.

وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

٣٤- إن للذكر نحو مائة فائدة، منها: أنه يُرضي الرحمن ويطرد الشيطان، ويُزيل الهم والغم، ويُنور الوجه والقلب، ويجلب الرزق، ويزيل الوحشة، ويحط الخطايا، ويُورث الذاكر المحبة والمراقبة والإنابة.

٣٥- تنقسم المحبة إلى قسمين رئيسين: محبة نافعة، ومحبة ضارة. والمحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع أيضاً: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها.

ومحبة الله أصل المحاب المحمودة، وأصل الإيمان والتوحيد، والنوعان الآخران تبع لها. والمحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها.

٣٦- ومن لوازم محبة الله:

أ- توحيد الله وإفراده بجميع أنواع العبادة.

ب- وموافقة الله في اتباع ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه.

ج- محبة القرآن الكريم والالتذاذ بسماعه.

٣٧- وتتمثل الأسباب الجالبة لمحبة الله في الأسباب العشرة التالية :

أ- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه.

ب- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

ج- دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال.

د- إيثار محابه سبحانه على محاب العبد.

هـ- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها.

و- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة.

ز- انكسار القلب بكليته بين يديه سبحانه.

ح- الخلوة به وقت النـــزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه.

ط- مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم.

ي- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

٣٨- تتمثل أهم ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابـــن القـــيم في الضوابط الآتية:

أ- الإيمان بالله تعالى.

ب- العبودية الخالصة لله تعالى.

ج- الالتـــزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما.

د- متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به.

هـــ- تعلم العلم الشرعي.

و- الالتـــزام بأداء التكاليف الشرعية.

ز- اجتناب الذنوب والمعاصي.

٣٩- ومدار الإيمان بالله على أصلين:

أحدهما: التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ.

والثاني: طاعة أوامرهما.

ويتبع هذين الأصلين أمران هما:

- رد شبهات الباطل التي توحيها شياطين الجن والأنس في معارضة الخبر.

- ومجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وكمال الطاعة.

٤٠- إن العبودية المطـــلوبة من السائر إلى الله عبودية الطاعة والمحبـــة، لا عبودية القهر والملك والغلبة.

٤١- وللعبودية مراتب بحسب العلم والعمل.

أما مراتبها بحسب العلم فمرتبتان هما: العلم بالله، والعلم بدينه.

والعلم بالله خمس مراتب هي: العلم بذاته سبحانه، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان هما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه؛ ودينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه.

وأما مراتبها بحسب العمل فمرتبتان هما: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

٤٢- إن الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ يكون بثلاثة أمور هي :

الأول: ألا يعارض شيئاً مما جاء به الرسول بشيء من المعارضات الأربعة وهي: المعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

الثاني: ألا يتهم دليلاً من أدلة الشرع، بحيث يظنه فاسد الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه.

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة، لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله.

٤٣- إن الطريق إلى الله مسدود إلا لمن اقتفى آثار الرسول ﷺ واقتدى به في ظاهره وباطنه.

٤٤- إن العلم الشرعي إن لم يصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، ومسدودة عليه كل سُبل الهدى والفلاح. وفَقْدُ العلم في السير إلى الله فَقدٌ لحياة القلب والروح.

٤٥- إن من فوائد العلم الشرعي للسالك: أنه يهذبه ويهيئه لسلوك طريق العبودية لله عز وجل، ويصحح همته، ويهديه إلى الغاية المقصودة له من سيره.

٤٦- إن من زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد لله فهو زنديق كافر بالله ورسوله.

٤٧- إن من أضرار المعاصي وآثارها القبيحة ما يلي:

حرمان العلم، وحرمان الرزق، ووحشة القلب، وظلمته، وهوان العبد العاصي على الله، وذلته، وفساد عقله، وضعف قلبه، وذهاب حيائه.

٤٨- تتمثل المصادر الأساسية لقيم السلوك مع الله عند ابن القيم في المصادر التالية:

أ- القرآن الكريم.

ب- السنة النبوية.

ج- الصحابة، رضوان الله عليهم.

د- الزهاد والمتصوفة الأوائل.

هـ- الشيخ أبو إسماعيل الهروي.

و- شيخ الإسلام ابن تيمية.

٤٩- إن القرآن الكريم أصل الأصول والمصدر الأول والأساس للأحكام الشرعية عند ابن القيم، سواءً في مجال العقيدة، أم العبادة، أم الأخلاق، أم السلوك، أم غيرها من المجالات التي جاء الإسلام بتشريعها وتنظيمها.

٥٠- تتبوأ السنة النبوية المرتبة الثانية عند ابن القيم – بعد كتاب الله – من حيث الاستمداد منها والاحتجاج بها، وقد عُني كثيراً بها، وحافظ عليها محافظته على القرآن الكريم، ورأى استقلالها بتشريع الأحكام ووجوب العمل بها.

٥١- إن للصحابة، رضي الله عنهم، عند ابن القيم مقاماً سامياً جداً ومنزلة عالية رفيعة، فهم -في نظره- ألين الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمها نصيحة، وأقربها إلى الله وسيلة. ولذا عُني بسيرهم، واستمسك بهديهم، واستمد من هذا الهدي قيم السلوك السوي في السير إلى الله تعالى.

٥٢- وقف ابن القيم من أهل التصوف عموماً ومن الهروي خصوصاً موقف أهل العدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكم، رحمه الله، للصحيح عندهم بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قَبِلَ ما عندهم من أقوال وأحوال توافق الكتاب والسنة، ورَدَّ ما خالفهما.

٥٣- كان لشيخ الإسلام ابن تيمية الأثر الإيجابي البالغ في تكوين ابن القيم العلمي، وفي تصحيح مساره العقدي، وتوجيه فكره، وتحديد منهجه وسلوكه، ولاسيما في ما يتعلق بمنازل العبودية لله عز وجل، فكان مصدراً مهماً من مصادره في تقرير هذه المنازل ومسائلها وقيمها.

٥٤- ونستنتج من كل ما سبق تميز منهج ابن القيم في قضية (قيم السلوك مع الله) عن مناهج أصحاب التصوف البدعي، الذين زعموا أن السالك منهم إذا سما في درجة القرب من الله سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغيرها، وحلّت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغيرها من الفواحش[(١)].

والذين فرّقوا بين الحقيقة والشريعة، حيث سمّوا علم الشريعة علم الظواهر، وسمّوا هواجس أنفسهم وأذواقهم ومواجيدهم علم البواطن أو الحقائق، وادّعوا أنهم أرباب الحقائق، وما سواهم من الفقهاء وغيرهم أرباب الظواهر، وأنهم يأخذون عن الله مباشرة بدون واسطة، وما سواهم يأخذون الظواهر بواسطة هي الرسول محمد ﷺ[(٢)].

---

(١) مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩) مفسرين (اليقين) بأنه الكشف الصوفي.

(٢) ومما قالوه بهذا الشأن قول بعضهم: «نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت»، مدارج السالكين، ٢/٣٥٠.

والذين حكّموا أذواقهم ومواجيدهم وأعرضوا عن العلم الشرعي معتقدين أنه يشغل السالك ويحول بينه وبين ربه[1]، واستجابوا لتلك الأذواق والمواجيد حتى أعطوها سلطة المشرع يأتمرون بأمرها وينتهون بنهيها ويقدموهما على الشرع والعلم إذا وجدوا تعارضاً بينهما[2].

والذين يتعبدون الله بغير ما شرعه سبحانه، سواءً كان المتعبَّد به ليس مشروعاً في ذاته، كتعبدهم بالرياضات والأوضاع التي رسموها بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم[3]، أم كان المتعبَّد به مشروعاً في ذاته ولكنه ليس مشروعاً في الموضع الذي يؤدّونه فيه، كصلاتهم ركعتين بعد التوبة، أو كان المتعبَّد به مشروعاً في ذاته وهم يتركونه زهداً وورعاً، كقعودهم عن طلب الرزق والنكاح، اعتقاداً منهم أن ذلك زهدٌ وتقربٌ إلى الله عز وجل، فعطلوا سنة من سنن الله في الكون.

---

(١) يقول أحدهم: «العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل»، ويقول آخر: «إذا رأيت الصوفي يشتغل بأخبرنا وحدثنا فاغسل يدك منه»، المصدر السابق، ٢/٣٥٠.

(٢) حيث يقولون: «إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع قدّمنا الذوق والوجد والكشف»، المصدر السابق، ٢/٥٣.

(٣) ومن ذلك: قعودهم جماعات للذكر، والاقتصار فيه على ذكر الله بالاسم المفرد مُظهراً، وهو قول (الله، الله)، أو مُضمراً، وهو قول (هو، هو). وممن ناقشهم بهذا الشأن نقاشاً جيداً ورد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية. راجع: مجموع الفتاوى، ١٠/٥٥٦-٥٦٧؛ ومختصر الفتاوى المصرية (لاهور: دار نشر الكتب الإسلامية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص٩٧؛ والرد على المنطقيين، ط ٢ (لاهور: إدارة ترجمان السنة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ص٣٥ - ٣٦.

والذين يزعمون أن الفقر محمود لذاته ، وأنه مقام شريف من مقامات الوصول إلى الولاية، وأن الفقراء أفضل من الأغنياء على كل حال[1].

والذين زعموا أنه يجب على السالك أن يخلو بنفسه في زاوية من الزوايا، وأن يقتصر على أداء الفرائض، وألا يُفرق فكره بقراءة قرآن ولا النظر في حديث ولا التأمل في تفسير، وينقطع عن علائق الدنيا بالكلية ويُفرغ قلبه منها ومن كل خاطر، مع تصفية الفكر للذكر وانتظار ما يُلقيه الله بعد ذلك في قلبه، وهو ما يسمونه بالكشف، حيث ينكشف له حينئذ -كما يزعمون- أمور كثيرة لا يمكن إحصاؤها ولا استقصاؤها[2].

والله أسأل أن يصلح أمر آخر هذه الأمة كما أصلح أمر أولها، وأن يهب لنا من لدنه رحمة وعلماً ورشداً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) راجع في هذا كلاً من: الطوسي، اللمع في التصوف (ليدن: مطبعة بريل، ١٩١٤م) ص٤٧ – ٤٩؛ أبي القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، ومحمود الشريف (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٤م) ص٥٣٧.

(٢) راجع في هذا كلاً من: الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة) ١٩/٣–٢٠؛ الإمام الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، ط١٠ (بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م) ص١٣٨ – ١٣٩؛ ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ط٢ (مصر: إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٦٨هـ) ص٣٢٣.

الفهرس

وكـــــلاء التـــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	دار الثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحرين	مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويت	مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبة علوم القرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
اليمن	مجموعة الجيل الجديد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨-٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ – صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ – الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مصر	دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائر	دار الوعي للنشر والتوزيع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة – الجزائر
إنكلترا	دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

مركز البحوث والدراسات

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

مركز البحوث والدراسات

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي
الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،
تطرح موضوعها لعام ٢٠٠٨م

«فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري»

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٠م

- **مدخل:**

التعريف بالسنن وعلاقتها بأمانة التكليف والاستخلاف الإنساني، وإقامة العمران.

- **المحاور:**

- دور القرآن في بناء الوعي بالسنن الإلهية.
- أسباب غياب الوعي بهذه السنن وأثره في تخلف المسلمين (جدلية القدر والحرية، الفهوم المعوجة والتدين المغشوش...).
- فاعلية السنن:
  - في مجال الكشف العلمي - قوانين العلم -، خصائص وصفات المادة (سنن الآفاق).
  - في مجال الاجتماع البشري وحركة التاريخ (سنن الأنفس).
- التكليف الإلهي باكتشاف هذه السنن وامتلاك القدرة على تسخيرها لتغيير ما بالأنفس، ومغالبة قدر بقدر.
- سبل استرداد الفاعلية وبناء الوعي بالمنهج السنني.

* ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار حول الشروط، يمكن الاتصال على :

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠ – ٤٣٠٩١٠١ (٩٧٤+) - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa